تأملات في حياتنا

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - أغسطس ٢٠١٢م

٢٢ شارع الأندلس - مصر الجديدة - بجوار حديقة ماري لاند
تليفون وفاكس : ٢٢٥٦٦٤٣٥ - ٢٢٥٦٦٣٧٥
٠١٠١٦٣٣٧١٨
Email: <shoroukintl@hotmail.com>
<shoroukintl@yahoo.com>
http://shoroukintl.com

تأملات في حياتنا

عزة العشماوي

مكتبة الشروق الدولية

البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية

الفهرسة أثناء النشر

(بطاقة فهرسة)

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

العشماوى، عزة.

تأملات فى حياتنا/ عزة العشماوى.

ط١. ـ القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٢م.

١٦٨ص؛ ١٤×٢٠سم.

تدمك 978-977-701-084-2

١ ـ المقالات العربية.

أ ـ العنوان. ٨١٤

رقم الإيداع ١١٥٨٠/ ٢٠١٢م

الترقيم الدولى **I.S.B.N. 978 - 977 - 701 - 084 - 2**

إهـــــداء

إلى ابنتي.. التي كثيرًا ما شغلتني بقصصها

وابني.. الذي ما زال يفاجئني بنظرياته

الفهـرس

الموضوع الصفحة

مقدمة.....٩

١ ـ اختيار الزوج.....١١

٢ ـ جيل استهلاكي.....٢٠

٣ ـ أوقات الفراغ.....٢٨

٤ ـ المشاركة.....٣٤

٥ ـ لهذا لا أصلح زوجًا!.....٤١

٦ ـ دعنى أريك كيف تقوم بالأمر.....٤٨

٧ ـ هذا خطأ!.....٥٥

٨ ـ طاعة الوالدين.....٦١

٩ ـ المساواة.....٦٧

١٠ ـ التسميم.....٧٦

١١ ـ أسفة.. لا أصلح زوجة.....٨١

١٢ ـ حائط سد.....٨٨

١٣ ـ الرضا..... ٩٤
١٤ ـ أطفىء النار..... ٩٨
١٥ ـ أحب لأخيك ما تحب لنفسك..... ١٠٢
١٦ ـ قبل فوات الأوان..... ١٠٥
١٧ ـ العمل..... ١٠٨
١٨ ـ القبح..... ١١٣
١٩ ـ التفاخر..... ١١٧
٢٠ ـ الملل..... ١٢٢
٢١ ـ نظرة فى تربية أطفالنا..... ١٢٦
٢٢ ـ حب الأبناء..... ١٣٢
٢٣ ـ أخاف عليك..... ١٣٧
٢٤ ـ البعد جفا..... ١٤١
٢٥ ـ هل تصدق ما فعله؟!..... ١٤٧
٢٦ ـ لم يعد شيء كما كان!..... ١٥١
٢٧ ـ لا بد أن تدفع الثمن..... ١٥٤
٢٨ ـ كثير أو قليل... لا فرق..... ١٥٨
٢٩ ـ فقدان الهوية..... ١٦٢
٣٠ ـ فلنغير أنفسنا أولًا..... ١٦٥

المقدمة

مرت بي السنون في تجارب عشتها أو عاشها غيري.. سمعتها أو سمعت عنها؛ خرجت منها بهذه الأفكار التي أرجو أن يكون فيها خير، وأن تفتح مجالًا للتفكير والنقاش.

تعلمت في حياتي أن الإنسان بحاجة أن يتوقَّف من حين لآخر ليتأمل حياته، وينظر إلى ما حقق فيها، وما يرجوه منها، أن يُراجع عَلاقاته بمن حوله.. أن يعرف أنه سوف يستفيد علمًا وخبرة قدر ما يفتح قلبه للآخرين.

كثيرًا ما ننظر إلى حياتنا كأمر حتمي مُسلَّم به، إما لأن هذا ما عهدناه واعتدناه، وما اعتاده أهلنا من قبلنا، وإما لأننا استسلمنا ويأسنا؛ فلا أمل في التغيير، وسنعيش التعب والكمد كما عاشه أهلنا من قبل.

التغيير سنة من سنن الحياة، ولا يمكن للإنسان أن يتغيَّر أو يُغيِّر حياته إلا لو رغب في ذلك، وشَعَر أنه يستطيع أن يؤثر في الآخرين ويتأثر بهم.

وأفضل من نتعلم منهم هم أبناؤنا؛ فلا يصح أن نعاملهم من منطلق أننا حُزنا كل الحكمة والخبرة، وليس عليهم إلا أن يسيروا على خطانا..

فهم قادرون على منحنا نظرةً جديدة في الحياة، مما نكتسبه في تعاملنا معهم من أفكار وتجارب.

اعتدت أن أنصت لأبنائي وبناتي، وأنظر للأمور من وجهة نظرهم، استمعت إلى مشاكلهم، شاركتهم أفراحهم وأحزانهم، تفهمت آمالهم وقلقهم ويأسهم أحيانًا.

وقبل كل هذا كانت لي ذكرياتي وتجاربي وأحلامي وآمالي..

خرجت من كل هذا بهذه الرؤية التي أقدمها بين يديكم.

عزة العشماوي

القاهرة ٢٠١٠

١ ـ اختيار الزوج

إنها أولى العقبات التي يتذرع بها الشباب عندما تنصحه بالزواج: «ومن أين لي بالزوج الذي يسعدني؟!».

الحقيقة أن الفكرة في حد ذاتها تبدأ بداية خاطئة؛ أولًا: لأن الفتاة أو الشاب ينتظر، عادة، من الطرف الآخر أن يسعده. ثانيًا: أنه يعتبر أن الغاية من الزواج هي الحياة في سعادة.

الزواج ليس محطة نهائية كما هو الحال في الأفلام؛ حيث تنتهي كل المشاكل والمتاعب بإقامة الأفراح. الزواج عمل في حد ذاته؛ رحلة بدايتها حفل الزواج. إننا خُلِقنا لنعيش الواقع لا الخيال، خلقنا لنعمر الأرض، والزواج صورة من صور تعمير الأرض.

الزواج تتمة لحياتنا التي عشناها مع أهلنا، لن تختلف حياتنا الزوجية كثيرًا عن حياة أبوينا، ربما تختلف في بعض التفاصيل، لكننا في كل الأحوال سنعمل ونختلف ونتألم ونتعب، وتمر بنا لحظات سعادة ومرح كما حدث لأهلنا؛ إنه مشوار الحياة، ومن لم يمشه مع رفيق، فسيمضي فيه وحيدًا.

ولكن كيف نختار شريك حياتنا؟ كل منا يضع قائمة بمتطلباته؛

فتطلب الفتاة: شخصية رائعة، إنسانًا صادقًا، متدينًا، ملتزمًا، رومانسيًّا، وسيمًا، على أخلاق عالية، كريمًا، غنيًّا، محبًّا لأهلي، له اهتماماتي نفسها.

ويشترط الشاب أن تكون: جميلة، جذابة، صادقة، مطيعة، على أخلاق عالية، مثقفة، ذكية...؛ من حق كل إنسان أن يضع الشروط التي يرغب فيها، لكن عليه وهو يضع هذه الشروط أن يأخذ في حسبانه عدة أمور:

أولًا: لا أحد منا كامل، لكل منا عيوبه، لكن النقطة أننا نعتاد عيوبنا، فنعتبرها بسيطة ومحتملة. ونجسم عيوب الآخرين، فنراها غير محتملة. بالتأكيد هناك عيوب غير محتملة، لكن العيوب المعتادة سنراها محتملة إذا تقبلناها في سبيل أن نقيم أسرة، ولا نعيش بمفردنا، كما أن علينا أن نتذكر كذلك أن الطرف الآخر سوف يتحمل منا عيوبنا المعتادة.

ثانيًا: أن الزواج أصبح عملية مكلفة جدًّا في بلادنا، وأصبح الأمر كما لو أننا نريد أن نحصل على كل شيء، وأعظم شيء، مقابل ما نتكلفه. اختيار الزوج ليس كشراء شقة أو سلعة معمرة؛ إنه اختيار حياة واختيار رفقة، إنه قرار الارتباط بإنسان نتابع معه رحلة الحياة.

كل شاب يريد الزواج من فتاة جميلة غنية متعلمة تعمل، وإذا نظرت إليه ربما تجده غير وسيم، ليس ناجحًا في عمله، وإذا واجهناه بذلك، يقول لك: «الرجل لا يعيبه شيء». حتى المقولة القديمة التي كانت تقول: «الرجل لا يعيبه إلا جيبه» انتهت بعد أن قام جيب الأهل بالمهمة.. وأحيانًا جيب الزوجة.

تطلب الفتاة شروطًا مثل أن يكون رومانسيًّا يراعي مشاعرها، يحترمها ويحترم دورها في الحياة، ويتفاهم معها، ويراعي أهلها. وهذه كلها من الممكن أن تتحقق ببساطة في فترة الخطوبة؛ حيث يراعي مشاعرها ومشاعر أهلها ويبقى لساعات ينصت إليها، ويكون كريمًا ومجاملًا ومتفهمًا. لكن هذا لن يستمر بعد الزواج لأسباب كثيرة، منها أن الإنسان لا يستطيع أن يكون متفهمًا أو مراعيًا للمشاعر طول الوقت؛ فمشغوليات الحياة وأعباؤها لن تسمح له بهذا، كما أن اهتمامات الرجال مختلفة عن اهتمامات النساء، وكذلك تصرفاتهم وردود أفعالهم وطرق تفكيرهم.

لن تكون الزوجة لطيفة دائمًا، بل كثيرًا ما ستكون نكدة و«زنانة»، فهي تتألم من أشياء لا ينتبه لها الزوج وإذا عرفها فلن يفهمها. وكثيرًا ما يتصرف الرجل بجفاء ويفضل مشاهدة التلفاز عن الحديث مع زوجته؛ فأغلب الرجال يجدون أن حديث النساء ممل، أو كله «قَرٌّ» ونكد وشكوى.

كما أن كثيرًا من الصفات لا تظهر إلا بالعشرة، فكيف سنعرف أن الزوج كريم؛ وهو غالبًا ما يظهر غير ذلك أثناء الخطوبة، كيف سنعرف أنه لا يكذب وهو لم يتعرض بعد لما يدفعه للكذب؟ وكيف سنعرف أنه متدين والكثير من الرجال يفضلون حجاب المرأة؛ لأنه حماية لها؟ كما أن الكثير من الفتيات يبحثن عن رجل متدين دون أن يفرقن بين المتدين بالفعل وبين المتزمت! وترغب الفتاة في رجل ذي شخصية قوية دون أن تحدد معنى الشخصية القوية؛ هل هو الذي يتخذ قراراته بنفسه، أم الذي يثير إعجاب الأخريات؟ سيعجبها طبعًا أن يختارها من دون الفتيات،

ولكن هل ستقبل أن يظل ساحرًا بالنسبة للأخريات أم ستأكلها الغيرة وتحيا قلقة خائفة من مطاردة الفتيات له؟ هل سيكون مريحًا لها بعد الزواج أن يصر على اتخاذ قراراته بنفسه أم أن الحياة ستكون أصعب؟ هي غالبًا لا تريده تابعًا لأمه أو إخوته لكن تتمنى لو كان تابعًا لها، وتعتبر أن هذا حقها.

المشكلة أننا نضع شروطًا لا نعرف كيف نتأكد من وجودها، نضع شروطًا نريدها أن تكون موجودة جزئيًّا، نريدها أن تتوفر في بعض الأوقات وتختفي في أوقات أخرى؛ كأن تطلب الزوجة من زوجها أن يكون مسؤولًا ويساعدها في العناية بأطفالها، لكنها ترفض أن يستقل بأي قرارات بشأن هؤلاء الأطفال، وتشتكي أنه مستبد ويتدخل فيما لا يعرفه. إننا نحاول أن نُفَصِّلَ زوجًا لا أن نتعايش مع زوج.

لا بد أن يكون الإنسان واقعيًّا، ويتنازل عن بعض الأمور التي ليست في نطاق المبادئ، ولا يتنازل عن شيء يعتبره جوهريًّا في حياته؛ عليه أن يبحث عن شريك يشاركه على الأقل مبادئه الأساسية في الحياة، وتكون له نظرة قريبة من نظرته للحياة ودوره فيها، وما يرمي إلى تحقيقه بتكوين أسرة، أما بقية العيوب فيمكن التعايش معها؛ لأنها تكون غالبًا اختلافات سلوك أو عادات، أما إذا كانت صفة من الصعب أن يتعايش معها، يجب عليه أن يراجع نفسه كثيرًا قبل الزواج؛ فالرجل المتدين مثلًا، عليه ألا يقدم على الزواج من فتاة متبرجة آملًا في هدايتها. والفتاة المعتادة على اتخاذ القرارات بنفسها، ليس من الحكمة أن تتزوج من شاب يرى أن الكلمة الأولى والأخيرة يجب أن تكون له، ولا يقبل أي نقاش أو رأي آخر... وهكذا.

المشكلة أن كثيراً من الناس يسلكون طريقًا غاية في العجب؛ إذ يختار الإنسان زوجًا لا تتوفر فيه شروطه الأساسية واثقًا أنه بالحب والإقناع سوف يغير الصفات التي لا تعجبه. وأحيانًا يعجب بصفات معينة لكنه لا يستطيع التعايش معها؛ فنجد شابًّا معجبًا بفتاة مستقلة قوية الشخصية ومتصرفة، وتجذبه بقوة ويتقدم للارتباط بها، ثم يستخدم كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، من حب وعنف وشجار، ليخضعها لإرادته.. ألم يكن من الأحكم أن يتزوج من البداية فتاة مطيعة؟ لا أحد يتغير تمامًا، قد نتنازل بعد الزواج عن بعض الأمور لكن الصفات الأساسية لا تتغير.

إن قرار اختيار الزوج قرار خاص بالإنسان لا بد أن يتخذه بنفسه، ولا مانع من استشارة الأهل وأخذ رأيهم؛ لكن مع ملاحظة أن الأمر في النهاية عائد له وحده؛ فهو الذي سيتزوج، واحتياجات كل إنسان تختلف عن احتياجات غيره، ومهما اعتبرناها تافهة ولا داعي لها، فذلك لا يقلل من أهميتها له؛ فالإنسان الذي يتنازل عن مطلب أساسي في اختيار شريك حياته، سيظل يتساءل دائمًا: هل كان من الأفضل له أن يتزوج شخصًا يوافق رغباته؟ لا أحد يقلل من أهمية خبرة الأهل ونظرتهم البعيدة، لكن هذه الخبرة يفقدها قيمتها أنهم كثيرًا ما يختارون عن هوى، فالأم غالبًا ترى أن ابنها أعظم إنسان في العالم، مهما عرفت من عيوبه، فترغب أن تزوجه ست الحسن والجمال، كما أن الأم غالبًا ما تبحث عما يريحها في زوجة الابن وتنسى أن احتياجاتها تختلف عن احتياجات ابنها، لكنها تصر أنها الأدرى بما يريح ابنها. وكثيرًا ما يضغط الأهل على بناتهم لقبول

إنسان يرفضنه؛ لأن هذا رفض لإرادة الله وبطر بنعمته، وسينتهي بها الأمر عانسًا لا تجد زوجًا.

الزواج مشاركة، رحلة تستمر طول العمر، قد يفيدك أن تستعين بخبرة آخرين في اختيار الرفيق الذي تصحبه، والمعدات التي تحملها معك، والأساسيات التي لا يمكنك الاستغناء عنها.. هذا إذا كان قد سبق لهم وقاموا بهذه الرحلة. مع ملاحظة أن رحلة كل شخص لا تتشابه أبدًا مع رحلة أي شخص آخر؛ فالظروف تتغير، وقدرات الإنسان ورغباته وعاداته تختلف؛ وبالتالي فمتطلبات واحتياجات الناس تختلف من شخص لآخر.

إذا كان الإنسان يُعطي بعض الاعتبار لخبرة الآخرين، فلا بد أن يُعطي كل الاعتبار لمتطلباته الشخصية ولقدرته على الاحتمال؛ فهذه العوامل هي التي تساعد على نجاح الرحلة وليس على مجرد إتمامها؛ فقد تتم الرحلة على أي وجه لكنها لا تكون ناجحة دائمًا لمجرد أنها استمرت.

قد يفيد الإنسان، وهو يختار رفيق رحلته، أن يسمع وجهات النظر المختلفة في هذا الشريك، ورؤية المقربين لعيوبه ومميزاته، لينتبه إلى أمور قد لا يلاحظها، أو لا يقدر أهميتها، لكن اختيار شريك الرحلة لا بد أن يكون خيارًا حرًّا.

الإنسان يختار، غالبًا، شريك حياته في مرحلة من عمره لا يملك فيها الخبرة الكافية، ولا يتصور ما الذي تعنيه مشاركة إنسان رحلة العمر، هذا

ما يجعله يحتاج إلى خبرة الآخرين ولكن عليه أن يتذكر أن يستعين بخبرة الآخرين لا أن يتركهم يختارون له.

من المهم أن ينتبه الإنسان إلى أن الحياة مشوار طويل وليست مجرد جلسة مسامرة سوف تنتهي قريبًا ويذهب كل منا إلى منزله؛ إنها احتكاك يومي وتعامل متواصل في كل شؤون الحياة.

لا بد أن يشعر الإنسان برغبة في مشاركة الطرف الآخر، وأنه يجد فيه المميزات التي يرغبها شخصيًّا، والتي تختلف من شخص لآخر، فالمسألة ليست مسألة صواب أو خطأ، وإنما اختلاف متطلبات. حتى الإنسان الذي يشترط الجمال في شريك حياته ونتهمه بالتفاهة، ليس من حقنا مصادرة حريته في الاختيار، وحقه في أن تكون هذه أولوياته؛ فهو أدرى بنفسه وبمن يحب وما يحب. قد يندم يومًا على خياره وربما لا يندم.

بما أن اختيار شريك الحياة يعتمد أساسًا على أولويات ورغبات الإنسان وما يراه صالحًا له؛ فإن من القسوة أن يرفض الأهل زواج أبنائهم ممن لا يعجبهم؛ إنه مصادرة لحق من حقوق الإنسان. على الأهل أن ينصحوا أبناءهم أو ينبهوهم إذا كان خيارهم كارثيًّا، أو كان العيب في الشريك سينعكس على حياة الإنسان ومستقبله وحياة من حوله. كما أنه ليس من حق الأهل أن يفرضوا اختيارهم الخاص مهما بلغ تعلقهم بأبنائهم وخوفهم عليهم، ومهما رأوا أن خيارهم هو الأصلح. وإذا كنا نرى أنه ليس من حق الأهل أن يفرضوا على أبنائهم شراء مقعدٍ لا يرغبون فيه في منزلهم فكيف بفرض شريك لرحلة الحياة؟!

النتيجة السيئة لفرض زوج على الأبناء لا تنعكس فقط على الأبناء، وإن كنت لا أعفيهم من تحمل مسؤولية قبول قرار أهلهم سواء بالاستسلام أو حتى بقبول منطق الأهل وعدم القدرة على مقاومة الضغوط المادية والمعنوية، إنما تنعكس على الطرف الآخر الذي اختاره الأهل، والذي لم يرتكب أي خطأ، ولم يكن عليه ذنب، فلقد ارتبط بإنسان ظانًّا أن هذا الإنسان قد اختاره، أو رغب في مميزاته. لقد تزوج وهو يشعر أنه مرغوب بذاته، وبدأ رحلة حياته معه واثقًا منفتحًا بعاطفته وتفهمه. يعيشا معًا لكن حياتهما تفتقد شيئًا مهمًّا، وهو الرغبة المتبادلة، فهي تحاول التقرب إليه، وهو يعاملها معاملة طيبة، لكنَّ ساترًا شفافًا يفصل بينهما، ربما سؤال دفين في داخله يطل من حين لآخر: «هل سأكون أسعد لو عشت مع زوجة من اختياري؟» وتفكر هي: «هل ما ينقصني من السعادة سببه أنني لم أكن أعجبه منذ البداية؟»

هذا الأمر يشبه نبتة جميلة ومبهجة، أهداها الأهل لابنهم وهو غير راغب فيها، فيحاول الاعتناء بها قدر استطاعته، لكن بمرور الوقت سيقل اعتناؤه بها، وقد يتذكر من حين لآخر أن يرويها لتظل على قيد الحياة لكنها لن تزدهر أبدًا.

أنا لا أستهين بدور الأهل في اختيار أزواج أبنائهم، ولكن دورهم يتوقف عند حدود النصيحة. ولا بد أن نتذكر دائمًا أن أولادنا ليسوا صورة منا، وأننا لا نعرف دائمًا ما يحتاجونه.

اختيار الزوج قرار صعب، لكنه مثل كل القرارات التي يتخذها

الإنسان، لا بد أن يقوم على قناعاته؛ لذلك من الضروري أن نمرن أطفالنا منذ الصغر على اتخاذ القرارات، إذا أردناهم في النهاية قادرين على تحمل مسؤولية قراراتهم.

إن فكرة حماية أولادنا وإسعادهم باتخاذ القرارات بدلًا منهم، تقود في النهاية إلى إنسان لا يعرف كيف يختار، أو لا يعرف كيف يدافع عن خياراته، مما يملأ منازلنا بالتعاسة ثم نتساءل بعد ذلك: «لماذا كل هذه التعاسات الزوجية؟!».

* * *

٢ ـ جيل استهلاكي

هل أصبح الهدف من حياتنا هو الحصول على السلع الاستهلاكية؟ فلم يعد عندنا ما نفعله غير الاستلقاء على الأريكة حالمين بامتلاك كل ما نتمنى، آملين أن يأتينا المال في الحال؛ لأننا نريد أن نتمتع بشبابنا، ولا نريد أن ينقضي شبابنا ونحن محرومون من متع الحياة.. لكن هؤلاء الحالمين الآملين يرفضون أن يكُدُّوا ويعملوا؛ لأن الأجر ضئيل لا يسمح لهم بتحقيق أحلامهم، كما أن العمل يستغرق وقتًا طويلًا لا يسمح لهم بالتمتع بشبابهم.

ما الذي حدث؟ لا أستطيع أن أمنع نفسي من ملاحظة أن تلك النظرة للحياة انتقلت إلينا جزئيًّا مع سفر المصريين للعمل في الخليج.

لقد سافر الشباب مع أسرهم في بداية الأمر، أو ارتبطوا بشباب مثلهم هناك. وكان الموظف المصري الذي يقوم بالعمل كله يأخذ راتبًا أقل بكثير من راتب الخليجي الذي يتولى الإدارة فقط لمجرد أنه من أبناء البلد، ولا يشغله إلا الحصول على آخر الصيحات في كل شيء من السيارة حتى القلم الذي يكتب به.

كانت مصر في تلك الفترة لا تدخلها السلع الترفيهية؛ فكان من الطبيعي أن يركز المصريون على شراء تلك السلع المتوفرة بكثرة في الخليج ويحملوها هدايا لأهلهم، مما جعل الخليج يُشكِّل «مغارة علي بابا». وكان الموظفون العاملون في الخليج يعودون من إجازاتهم ومعهم المال؛ ينفقونه بكثرة، لكننا لم نكن نراهم وهم يعملون بجهد ويتحملون المتاعب، ويعاملون معاملةً سيئة في أحيان كثيرة؛ بدا الأمر لأهلهم كما لو كانوا يذهبون في رحلة ثم يعودون بالمال.. كأن المال في الخليج متوفر موجود لكل من يريد.. وهكذا أصبح السفر إلى الخليج حلمًا للجميع.

في البداية سافر المدرسون والأطباء وغيرهم من ذوي الشهادات الجامعية، وكان غرضهم هو الادخار لبدء حياة، أو الحصول على مسكن، في وقت ارتفعت فيه أثمان المنازل، ولم يعد في وسع الموظف داخل البلد أن يوفر من مرتبه للحصول على شقة، ولم تكتف تلك الأسر بشراء شقة لتقيم فيها، بل عملت على ادخار ثمن شقة لكل من أبنائها، ثم حرصت على أن توفر لأولادها كل ما يمكنها من إمكانيات: شقة للزواج وسيارة وملابس مستوردة.

كما أن صورة الحياة في الخليج أصبحت المثال الذي يقتدى به في نوع الحياة التي تجلب السعادة والهناء، والتي تقوم أساسًا على الاستهلاك، والتسلية بالشراء، وتقييم الإنسان بما لديه من سلع استهلاكية.

امتد السفر إلى العمال المهرة وغير المهرة، حتى الفلاحون تركوا أرضهم وسافروا ليعودوا بأجهزة استهلاكية مثل المروحة والمسجل،

ويعود الفلاح ليجرف أرضه ويبني منزلًا من الإسمنت المسلح؛ وكل هدفه أن يتميز عن غيره، وقليلون من اشتروا أرضًا زراعية أو عادوا لمهنتهم الأصلية، بل لقد خلع ملبسه وارتدى الجلباب الخليجي. وأصبح يجلس في وسط أهله وأهل بلدته يتفاخر بما معه من مال، دون أن يشير من قريب أو بعيد إلى المشقة التي يتحملها، والحرمان وظروف الحياة السيئة التي يعيش فيها هناك، حيث يتكتل العمال في السكن فينام عشرة أفراد في غرفة، ولكن كل ما يهمه أن يتفاخر.

انقسمت الطبقة المتوسطة، بل الفقيرة أحيانًا كثيرةً، إلى قسم سافر واقتنى السلع الاستهلاكية، وجزء آخر لم يتسن له أن يسافر فبقي يحاول السفر ويندب حظه.

ولكن الدولة لم تكتف بأن دفعت الناس للسفر ففتحت باب استيراد السلع الاستهلاكية، وكان التركيز على السلع الاستهلاكية وليس الإنتاجية، مما كان له تأثير سيئ على الوضع الاقتصادي.

كانت البداية في بورسعيد فأصبح الحلم قريبًا؛ لم تعد هناك حاجة للعمل في الخارج لتحصل على ما تحتاجه من سلع استهلاكية. سافر الناس إلى بورسعيد ليجلبوا التفاح والمعلبات، وادخروا واقترضوا لشراء ملابس مستوردة، وزادت عمليات التهريب ورأى الجميع فيها أمرًا سليمًا لأنه يحقق حلم الجميع في اقتناء سلع استهلاكية مستوردة.

كانت الأم تعمل خادمة في المنازل ليتمكن ابنها أو ابنتها من لبس ملابس مستوردة، بل إنه في الطبقات الكادحة أصبح شرطًا من شروط

إتمام الزواج الحصول على الأدوات الكهربائية والأواني التي كان يجلبها الناس من الخليج، أو من بورسعيد، حتى ولو لم تكن هناك حاجة لها؛ فالفتاة التي تتزوج دون أن تكون لديها سجادة واحدة تحرص على اقتناء مكنسة كهربائية حتى ولو بالدين. أصبح الهدف هو اقتناء السلع الاستهلاكية مهما كان الثمن المدفوع.

ليست المشكلة ـ كما يقول البعض ـ أنه نتيجة للعمل في البيوت رغبت العمالة في امتلاك ما تراه في المنازل التي تعمل بها؛ لأن العمالة في المنازل كانت من قديم الزمن؛ لكن المشكلة أن التفاخر بين أبناء الطبقة المتوسطة والفقيرة أصبح بالحصول على السلع الاستهلاكية ولو لم تكن لها أهمية.

وهنا جاء التلفاز، خاصة بعد أن تعددت محطاته، ودخل كل مكان ليغير نمط الحياة وليحيطنا بكم هائل من الإعلانات. وانتشر الهاتف المحمول لتقنعنا شركات الاتصالات أنه لا حياة لنا بدونه، وأصبح التلفاز والهاتف المحمول من أساسيات الحياة، حتى لو اقترضنا للحصول عليهما.

أعرف أنه أصبح من المستحيل التخلص من تلك الأجهزة الحديثة، وأنه من الصعب أن أطالب أحدًا أن يعيش دونها؛ لكن أخذ هذه الأجهزة على علاتها، وقبول الغث والسمين منها يتنافى مع كوننا بشرًا نفكر. لا بد من الانتباه إلى أن تلك الأجهزة الحديثة حولتنا إلى مستهلكين لا تتوقف لدينا الرغبة في امتلاك ما نريد سواء احتجناه أم لا.

ذلك الاستغلال المادي والمعنوي الذي تستغله لنا هذه الأجهزة، ونوع الأحلام الذي تزرعه داخلنا لا يتطلب كثير عناء، افتح جهاز

تلفازك أو حاسبك الآلي أو حتى أجب على هاتفك المحمول ينهمر عليك فيض من الإعلانات عن أشياء، بالتأكيد لست في حاجة لها، ولكن عليك أن تشتريها، بدءًا من الشقة والسيارة... إلى أغان تدفع مبالغ من المال لتحملها على هاتفك المحمول كرنة لأصدقائك.. والمبلغ ليس كبيرًا، بضعة جنيهات.

في البداية كانت الإعلانات هي المشكلة فقط ثم تفتق ذهن العاملين على تلك الفضائيات على طرق سهلة للحصول على المال من جيوبنا، فمن رسالة ترسلها بمحمولك فيظهر اسمك على ذلك الخط البغيض أسفل الشاشة، إلى تلك المسابقات التي بالتأكيد ستنتهي بك أن تصبح من أصحاب الملايين.. فقط اشترك بها عن طريق الاتصال برقم هاتف، ولا تنس أنك إذا أرسلت رسالة إلى أحد أرقام الهاتف فأنت مرشح لتكسب بضعة آلاف. اطلب سلعة ما.. إنها متوفرة بأرخص الأسعار، وستصلك حتى باب منزلك ويمكنك أن تدفع ثمنها بالتقسيط، أنواع مستحضرات وأعشاب تعيد لك الشباب وتعيد لجسدك رونقه دون الحاجة لبذل الجهد في الرياضة... وهلم جرا.

ألاحظت ذلك الترابط بين الأجهزة فكل منها يحيلك للآخر، وكل منها يقنعك بأن كل ما عليك أن تجري اتصالًا، أو تشتري سلعة معلنًا عنها، أو تدخل موقعًا فتصبح غنيًّا سعيدًا.

وتدفع بضعة جنيهات، ربما لا تكون كثيرة كل مرة، لكن بمرور الوقت يتحول الأمر إلى نوع من القمار والإدمان.. فلا حاجة للعمل.

كما أن تلك الأجهزة لها القدرة على تغيير قيمنا؛ فالتلفاز يقنعك أنه لا حاجة لك أن تعمل لكي تحصل على ما تحتاجه من مال؛ فالاشتراك في المسابقات التي يقيمها سيوفر لك ما تحلم به، وها هي أمثلة: أناس كل ما فعلوه أن اشتركوا في إحدى المسابقات وها هم يتمتعون بحياتهم.

وتتوالى الصور تعرض عليك منزل العمر محاطًا بالحدائق الغناء، وسيارة العمر، وأفضل المدارس لأبنائك.. لكنه لا يخبرك أن عليك أن تعمل لتحصل عليها؛ فثمنها أغلى بكثير مما قد تحصل عليه نتيجة عملك طول العمر ومع ذلك فالحل بسيط؛ اقترض من البنوك فتحصل على شقة العمر، أو سيارة العمر. لقد أصبحت البنوك تنافس المحلات في الإعلان عما تقدمه من تسهيلات، وبطاقات ائتمان... وكلها تدور حول اشترِ الآن وسدد فيما بعد. لا يتركك تفكر في كيف ستسدد فالمهم أن تتمتع بشبابك ولو دخلت السجن أو ألقي بك في الطريق بعد ذلك.

التلفاز يسكب علينا طول الوقت طرق سعادة مرتبطة بأشياء مادية.. لا أعرف كيف نحصل عليها، ولكنها تجعلنا غير راضين عن حياتنا، ومتطلعين دائمًا لحياة لا يمكننا تحقيقها إلا بالسرقة أو بتحقق معجزة ما عن طريق أحد العروض التي لا نعرف مدى صحتها.

الكارثة الأخرى التي يتسبب بها التلفاز أنه يصور لنا الحياة على غير حقيقتها، فالناس في التلفاز يعيشون دائمًا في بيوت فاخرة مع أزواج متفهمين يغدقون عليهم الحب، ونادرًا ما يذهبون للعمل، وإذا ذهبوا فالعمل ممتع لا يحتاج لمجهود. الحقيقة أن التسريبات الصغيرة في التلفاز خطيرة فالزوج في التلفاز، خاصة في المسلسلات الأجنبية، دائمًا متفهم

ولطيف، فإذا لم يكن مجرمًا تطارده الشرطة فهو زوج مطيع. أما الزوجة فتتمتع بأحدث مقاييس الجمال من قد ممشوق وشعر مرتب، وتلبس أحدث الأزياء وأكثرها إغراء في المنزل وإلا كانت محل استهزاء.

هكذا تغير أسلوبنا في اختيار الأزواج، وأصبحت العوامل المادية والشكل والابتذال العاطفي هو المطلوب، ودمرت بيوت؛ لأن الزوج لا يتصرف كما يتصرف الزوج على التلفاز. كرهنا حياتنا وتغلب علينا الشعور بأننا مظلومون لعدم امتلاكنا كل هذا، أصبحنا نستقي المبادئ من التلفاز. نرى الغني أجمل وأكثر استحقاقًا للاحترام، فقد العمل قيمته؛ لأنه لن يوصلنا، مهما عملنا، إلى ما نرغب أن نعيشه، أصبحت مهن مثل لاعب الكرة والمغني وفتاة الإعلان هي القدوة التي يأمل كل شاب أو فتاة في العمل بها. أصبحت السعادة هدفًا لا يتحقق إلا بالامتلاك. خلقنا جيلًا استهلاكيًّا لا يسمع طول اليوم إلا كلمات مثل: اشتر.. اقتن.. احصل على. وأصبح أولادنا يقارنون ما لدينا بما لدى أصدقائهم، أصبح حديث الأطفال عن سيارتنا وسيارتهم وهاتفنا وهاتفهم...

أصبح المحمول شغلنا الشاغل؛ فما من طفل أو كبير إلا في يده محمول، ولديه دائمًا أعذار لاستخدامه، فالأم تريد أن تطمئن على ابنها في المدرسة، والعامل يريد أن يتفق على مواعيد عمله. والهاتف المحمول يتجدد بأسرع من أي جهاز آخر فنجد الناس ينفقون مبالغ كبيرة في شراء هاتف جديد بإمكانات جديدة لا يحتاجونها في الغالب، بل لا يعرفون كيف يستخدمونها، ولكن من أجل التفاخر.

وقد حل الهاتف النقال مشكلة صلة الرحم عند الناس فأصبح

المطلوب منك مجرد إرسال رسالة تهنئة بالعيد أو برمضان لكل الأهل مرة واحدة وتتخلص من مشقة الاتصال أو الزيارة، إنها مجرد رسالة لهم جميعًا، وتكسب شركات الاتصالات ملايين الجنيهات كان يمكنها أن تبني مصانع أو تزرع أرضًا ولكنها تلاشت في الهواء وزاد الأغنياء ثراء والفقراء فقرًا.

وفقد العمل قيمته مع هذا التيار الاستهلاكي؛ فلا أحد يتكلم عما يحققه العمل من احترام الإنسان لذاته، ولا من القضاء على أوقات فراغ لا نفعل فيها شيئًا، ولا من بناءٍ لبلادنا حتى لا نحتاج لمن يقرضنا أو يساعدنا. فقدنا احترامنا للعمل ففقدنا احترامنا لذاتنا وأصبحنا نقبل أي إهانة، نقبل التسول والغش والسرقة بديلًا عن العمل، نسينا أن العمل هو مهمتنا الأولى التي خلقنا لها، وذهبنا نبحث عن سراب السعادة في أجهزة ومنازل وسيارات وملابس، وأحيانًا شطيرة أو كيس من البطاطا، ثم نلعن الدنيا التي تظلمنا ولا نجد فيها راحة ولا سعادة.

لم نفقد قيمة العمل خارج المنزل فقط ولكن فقدنا احترامنا للعمل داخل منازلنا، وبعد أن كان عمل المرأة في منزلها يجعلها ربة هذا المنزل، وكلما زاد اهتمامها بمنزلها وأولادها زاد احترامنا لها، أصبحنا ننظر إلى عمل المرأة في المنزل على أنه نوع من الذل والاستعباد، وأصبحت المرأة تجد أن من حقها أن يعمل لديها من يحمل عنها عبء البيت والأولاد وإلا أخذت تندب حظها. وبعد أن كنا نحترم العمل اليدوي أصبح تخلفًا. وعم الفراغ والخواء الداخلي حياتنا الأسرية وتفاقمت المشاكل بين الأزواج نتيجة فراغ ورغبةٍ استهلاكية لا تشبع، وأصبحنا لا نسمع إلا تذمرًا وضيقًا، ولو انشغلوا بالعمل ما وجدوا وقتًا له.

٣ ـ أوقات الفراغ

الفراغ ذلك الوحش الذي يمتص حياتنا دون أن نراه. يدعي الجميع أنه لا وقت فراغ لديه، وأن كل ما يفعله قضاء بضع ساعات أمام التلفاز، أو الحاسب الآلي، أو على الهاتف ليرتاح من عناء العمل، وأنه لا ضرر من هذا.

ورغم أنه، حتى وقت قريب، لم يكن ضرر التلفاز كبيرًا؛ فلقد كان وقت الإرسال محددًا، وعدد المحطات اثنتان على الأكثر، ومع التوسع الرهيب في المحطات، واستمرار ساعات الإرسال أربعًا وعشرين ساعة كان لا بد من ملء هذه الساعات، وبالفعل مُلِئت لكن أكثر ما ملئت به غث، لا فائدة منه إن لم يكن مضرًّا.

ورغم أن جهاز الحاسب الآلي ليس بانتشار أجهزة التلفاز الموجودة في كل بيت، فإنه من الممكن تأجيره في المقاهي الخاصة به، ويمضي الشباب ساعات يلعبون على الجهاز أو يدخلون مواقعه، ولا أتحدث هنا عن المواقع المخلة بالآداب، إنما عن مواقع لا يستفيدون منها الكثير؛ بل مجرد معلومات اجتماعية، أو محادثات عن طريق الحاسب الآلي. ولا بد

أن ننتبه لخطورة الدردشة على الحاسب الآلي فأغلب الناس يدخلون في دردشة مع أناس لا يعرفونهم، وقد تتطور العلاقات وينتج عنها مآس، كما أن الإنسان وهو يكتب على الحاسب الآلي ينتابه شعور أنه لا أحد يعرفه مما يجعله يكشف عن الكثير من مشاعره وأمور حياته الخاصة.

لقد سرقت هذه الأجهزة حياة الناس، وأصبح وقت الفراغ القليل الذي كان يمضيه الناس في حوارات مجرد جلسة أمام أحد الأجهزة.

إذا تحدثنا عن شغل أوقات الفراغ بهواية يسارعون بقول: «ألا يكفي ما أفكر فيه في عملي أو جامعتي؛ أريد أن أريح ذهني بألا أفكر في أمور لها معنى». إذا طلبت من امرأة أن تطرز أو تحيك ردت عليك: «لمن؟ أولادي يفضلون الملابس الجاهزة كما أنها أرخص وأسرع، وهل علي أن أعمل في المنزل طول اليوم ثم أقضي وقت فراغي أيضًا في العمل؟». وإذا حدثتهم عن عمرهم الذي يضيعونه كان الرد جاهزًا: «لقد قمنا بما علينا وهذا وقت الراحة».

الحقيقة أنه لا مانع أحيانًا من هذا النوع من الراحة لولا أننا نرى الناس مع هذا يزدادون إحباطًا وضيقًا وإرهاقًا. الحقيقة أن علم النفس أثبت أن الإنسان في حاجة للقيام ببعض الأعمال اليدوية مثل النجارة أو الأشغال اليدوية؛ لأن هذا يهدئ الأعصاب بدرجة كبيرة، كما أن استلقاء الإنسان وقتًا طويلًا دون أن يفعل شيئًا أو يتحرك يصيبه بالخمول والصداع.

أظن أننا نحتاج أولًا إلى أن نعيد الحوار إلى حياتنا.. حتى لو كان تعليقًا على برامج التلفاز. فالحوار منبع رائع لنقل التجارب والقيم.

وإذا كان لا مفر من قضاء الساعات الطويلة أمام التلفاز فلتكن فرصة رائعة للأهل لنقل تجاربهم وقيمهم لأولادهم، إن مجرد تعبير استياء عن موقف أو تصرف خطأ في مسلسل على التلفاز يترك تأثيرًا كبيرًا في الأولاد، خاصة عندما يقتصر على تعبير بالاستياء دون أن تصحبه محاضرة أخلاقية. إن مشاركة الأهل أولادهم مشاهدة التلفاز فرصة كبيرة لخلق حوار، وفرصة للأبناء ليسألوا ويجيب الأهل دون أن يبدوا امتعاضهم لأن أبناءهم يقاطعونهم.

لا بد لكل منا من هواية أو أكثر، فنحن نحتاج هواية فكرية سواء القراءة أو الرسم أو الكتابة، ونحتاج عملًا يدويًّا مثل أشغال الإبرة، وإذا لم يكن أولادنا في حاجة لملابس فآلاف الفقراء يحتاجون مما يجعل من هذا العمل هواية وعبادة، يستطيع الإنسان القيام بالأعمال اليدوية أمام التلفاز وبالتأكيد سيكون هذا أفضل من الأكل أمام التلفاز. يحتاج كل منا أن يقوم برياضة ما حتى ولو قليلًا من المشي.

لقد لاحظت أنه مع توفر أوقات الفراغ ظهرت أكلات الفراغ سواء من بطاطس أو حلوى، والغريب أن الإنسان بمجرد أن يتوقف عن القيام بعمل ما يبدأ في التفكير في شيء يأكله.. ونتساءل عن أسباب السمنة والأمراض.

الإنسان ليس في حاجة أن يكون مبتكرًا ولا ماهرًا في أشغاله اليدوية، نحن لن ندخل سباقًا، نحن نحاول القيام بعمل مفيد يشغلنا ويريح أعصابنا، لا داعي لأن يكون الثوب الذي نحيكه رائع الجمال يكفينا أنه

سيوفر الدفء لطفل ما. الدنيا مليئة بملابس جميلة وعلى أحدث طراز ولكن ثوبًا تحيكه الأم أو الجدة للطفل يحمل معنًى أكبر من هذا.

إن داخل الإنسان قدرة كبيرة على ظلم نفسه، وظلم من حوله، بل العالم كله؛ فالإنسان قادر على الكثير سواء ماديًّا أو ذهنيًّا، وتعطيل تلك الإمكانيات يجعلها تندثر وتضعف، ويومًا بعد يوم يشعر الإنسان أنه غير قادر على القيام بأي عمل مهما كانت بساطته. وتمر السنوات ويبقى الإنسان مقعدًا في كرسيه يشكو الملل وقسوة الحياة، ويمر الوقت بطيئًا طويلًا فلم يعد يمتلك حتى النظر والسمع ليتابع التلفاز الذي سرق حياته ذات يوم.

كنت أفكر دائمًا في الصلاة على أنها إلى جانب أنها عبادة فهي نوع من العمل يقوم به الإنسان على مدى اليوم. كان يمكن أن تفرض الصلاة صباحًا مرة واحدة وينتهي الأمر، لكني أظن أن الله أراد أن يكون وراءنا دائمًا ما نفعله على مدى اليوم، إنه يطالبنا أن نقوم ونتحرك ونسعى.

أظن أن جملة «لقد انتهيت من عملي» جملة لا معنى لها فليس هناك من انتهى من عمله، هناك فقط من انتهى من عاجل عمله. إن الموظف الذي أتم عمله عليه أن يقرأ ويطلع حتى يحسن من عمله. ما زالت وراءه واجبات عائلية أهمها وأسهلها الجلوس والكلام مع أطفاله، ما زال وراءه أن يشبع هواية، أن يفيد المحيطين به بما عنده من علم وقدرات.

حتى المرأة في منزلها.. المنزل لا يتوقف عن الاحتياج، هناك الكثير من العمل المؤجل، وهناك الكثير من العمل الممتع؛ فخبز كعكة بمشاركة

الأطفال أمتع وأفيد من شرائها، وتعلم الأطفال الكثير عن تقدير العمل اليدوي والتوفير. هناك تنمية معرفتها وذاتها والاطلاع على ما يدور في العالم حولها مما يمكنها من الحوار مع زوجها ومشاركته اهتماماته. هناك الكثير من القيم والمبادئ التي يمكن أن تعلمها لأبنائها بطرق عملية.

أما الشباب غير المرتبط، الذي لم يكون أسرة بعد، فأعمال التطوع تتطلب الكثير من التعاون، وفي بلد فقير كبلدنا لا نملك رفاهية قضاء أوقاتنا في نقاشات عبثية، على الحاسب الآلي والهاتف، ونسبة الأمية تبلغ معدلات مرعبة. الكثير من الشباب يمضي وقته في حفظ وتدارس القرآن وهذا أمر عظيم لكن بلدنا في حاجة للكثير من العمل؛ من محو أمية، وتعليم الناس مهارات لترميم المنازل، وحياكة الملابس...

علينا ألا نحرص فقط على تفوق أبنائنا في دراستهم وحصولهم على تعليم جيد يوفر لهم حياة طيبة، لكن مع هذا، أو حتى قبله، علينا أن نعلمهم القيام بدورهم في الحياة، الدور الذي خلقهم الله من أجله وهو أن يعمروا الأرض، ولن يكون هذا إلا بالعمل واستغلال الوقت.

الفراغ طريق يؤدي إلى الموت البطيء، دائرة يعيش داخلها الإنسان يشكو الملل وجحود الآخرين ورتابة الحياة. لكنها دائرة لا يكسرها إلا الإنسان نفسه. ليس المطلوب منك أن تبرع في العمل الذي تؤديه، المطلوب منك أن تؤدي العمل بإخلاص قدر طاقتك، ليس المهم أن تكون الأول أو الوحيد، لكن من المهم أن تكون جزءًا من الجماعة، جماعة يقدم كل من فيها ما يمكنه. قد تنجح أحيانًا وقد تفشل مرات، لكنك على

الأقل ستظل على قيد الحياة، إنسانًا لوجوده معنًى، إنسانًا ترك أثرًا، ولو قليلًا على طريق الحياة.

الغريب أننا مع توفر الآلات التي تساعدنا، من غسالة ملابس وصحون ومكنسة كهربائية، لم نزدد سعادة ولا راحة، وزادت مشاكل حياتنا؛ لأن الوقت يحتاج أن نملأه، وفي الماضي كان العمل يستهلك وقت المرأة في المنزل فلم يكن لديها كثير من الوقت لتفكر: هل هي سعيدة أم تعيسة؟ وماذا لدى الآخرين وليس لديها؟ وهل يهتم بها زوجها أم لا؟ وماذا فعلت حماتها أو سلفتها؟ كان العمل في المنزل يستغرق اليوم كله وما أن يأتي المساء إلا ويكون كل ما تحتاجه هو الراحة والسكينة. أما الآن فلقد توفر لها الوقت لتفكر في كل هذه الأمور، وتستغرق في التفكير في تعاستها، وتحلم بمزيد من الآلات التي تريحها، وتندب حظها لأنه ليس لديها ما لدى صديقاتها.

لابد من إعادة النظر لطريقتنا في الحياة، وألا نعتاد الهروب منها بقضاء مزيد من الوقت في الخارج، في العمل أو مع الأصدقاء، أو بالاستلقاء أمام أحد الأجهزة. علينا أن نلغي كلمة الملل من أحاديثنا وحياتنا.. لقد مللنا كل شيء حتى أولادنا الذين أنجبناهم لنسعد بهم؛ مللناهم وبدأنا نبحث عن طريقة للتخلص من إزعاجهم لنا.

إنها القضية نفسها، إننا نبحث في حياتنا عن المتعة ونسميها سعادة، ليس القصد من الحياة هو التمتع، بل لقد ثبت دائمًا أن المتعة لا تجلب السعادة، فنظل ندور باحثين عن السعادة وهي موجودة في مجرد الحياة وتقبلها والقيام بما علينا فيها.

٤ ـ المشاركة

الاتجاه الحديث في توفير جميع الإمكانات للطفل وعدم إشعاره بالحرمان، والحرص على أن يشعر أنه ليس أقل من غيره ـ اتجاه مدمر إلى أقصى حد للطفل وللأسرة.

مع تعقد الحياة وسفر الأسر للعمل في الخارج، وخروج المرأة للعمل، وكثرة متطلبات الحياة اندفع الأهل دون أن يشعروا إلى تعويض أبنائهم عما افتقدوه من وجود للأب وللأم.

أذكر أننا ونحن صغار لم نكن نملك من اللُّعب إلا لعبة أو اثنتين، منهما على الأقل لعبة مشتركة مثل لعبة السلم والثعبان و«الليدو». وأحيانًا كان يسمح لنا باقتراض لعبة الشطرنج أو الطاولة أو الورق من أهلنا. وتلك الألعاب لا يمكنك أن تلعبها بمفردك، فلا بد لك من مشاركة أحد إخوتك أو أقاربك أو أصدقائك على الأقل. كان علينا أن ندبر أمرنا لنتمكن من اللعب، وأن نحتمل سخافات بعضنا، بل أحيانًا أن نرشو بعضنا فنتنازل عن بعض حلوانا لقريب أو صديق ليقبل أن يلعب معنا. وإذا اختلفنا أو تعاركنا كان علينا أن نعود من جديد لنتعامل؛ وإلا فكيف

سنلعب، أو حتى كيف سنقضي وقتنا؛ فليس هناك بديل فلا تلفاز نشاهده. وحتى القراءة وهي الأمر الوحيد الذي يمكننا القيام به بمفردنا كنا نحتاج فيها لمفاوضات؛ فالكتب ليست متوفرة بكثرة، ومجلات الأطفال كانت تأتي منها نسخة واحدة، وعلينا نحن الإخوة أن نتفق من سيقرؤها أولًا، وهل سيقرؤها كلها أم يقرأ جزءًا ويعطيها لأخيه ليقرأ جزءًا. لم يكن من حقنا الاحتفاظ بها في غرفتنا لتصبح ملكًا لنا. الكتب كانت قليلة وكانت ملكًا لأفراد المنزل جميعًا.

كان مفهوم الملكية الفردية غير موجود تقريبًا عندنا ونحن صغار؛ فكل شيء ملك لأهل المنزل جميعًا. فإذا قررت أن تجعل لنفسك كوبًا خاصًّا لاستعصى عليك الأمر؛ فالأكواب متشابهة ومن الصعب أن تضمن عدم استخدام غيرك له، خاصة مع تلك الجموع من أولاد الخالات والأعمام الذين يأتون ويذهبون، والذين تربينا على أن لهم نفس حقوقنا.

لم يكن هناك معنى أن أقول «هذا سريري» فأنا لا أعرف أين سأنام الأسبوع القادم عندما تأتي خالتي من السفر لتمضي عندنا إجازة الصيف، وهذا أمر يتكرر باستمرار؛ فالمنزل لا يخلو من أناس يقضون معنا أيامًا. لم يخطر لي قط أن أعلن، أو أشعر، أنهم يزعجونني؛ لأنها فكرة غير مطروحة أساسًا؛ فحتى لو كانوا يزعجوننا فهل هذا مبرر لعدم استقبالهم؟! إذا أعلنت أن أخي مزعج فهل ستخرجه أمي من المنزل؟ هكذا كان الأصل في الأشياء أن نستضيف الأهل والأصدقاء في منزلنا، حتى ملابسنا لم نكن نعرف على من سنجدها غدًا.

كان علينا أن نتفاهم مع هذا الكم من الأشخاص المختلفين عنا، والذين لا تعجبنا آراؤهم وتصرفاتهم أحيانًا، والذين نرفض أفكارهم أحيانًا أخرى، كان علينا أن نعيش طفولتنا وشبابنا هكذا.

كنا نتقبل هذه الحياة ولا يخطر ببالنا أن يكون لها شكل آخر، كنا نبقى أسبوعًا في نهاية الإجازة الصيفية، بعد أن يغادرنا ضيوف الصيف وقبل بدء العام الدراسي، نُزيل آثار العدوان كما كنا نسميه، ونعيد المنزل إلى وضعه الذي سيكون عليه خلال فصل الشتاء.

كنا نبذل مجهودًا كبيرًا في التنظيف ولكن لم نثر قط، كان هذا جزءًا من حياتنا ومن الطبيعي أن ننظف المنزل ألم نشارك في إحداث هذا؟! ألم نتمتع بالصحبة واللعب؟! ألم تكن إجازة الصيف تغييرًا وطقوسًا ننتظرها كل صيف؟!

أما عن نزهاتنا، فكنا نذهب للسينما، غالبًا كنا نذهب لفيلم يناسب كل الأعمار حتى نذهب معًا. أو نذهب للحديقة أو المتحف الزراعي. و«نذهب» هذه تشمل أبناء الخالة والعم الباقين في القاهرة بعد انقضاء إجازة الصيف، كانت المتعة مرتبطة بأقل قدر من الإنفاق فلم يكن المال متوفرًا، ولكن لم تكن تلك مشكلة فقد كنا نعرف كيف نتمتع دون إنفاق.

كان أول درس تعلمناه هو المشاركة فلا متعة دون مشاركة، ولا لعب ولا مرح، بل لا معنى أصلًا للحياة دون مشاركة.

ماذا نرى اليوم؟ نرى أطفالًا وصبية أمام جهاز.. يمضون جُلَّ

وقتهم يلعبون ألعابًا إلكترونية لا تحتاج رفيقًا، ويعتبرون أي حديث أو مقاطعة من أحد إخوتهم إزعاجًا يحرمهم المتعة. إنهم ليسوا في حاجة لإخوة ليقضوا وقتهم، وبالتالي ليسوا بحاجة أن يتعلموا حسن التعامل ومراعاة الآخرين، بل إن الكثير من أطفال اليوم لا يعرفون المشاركة ولا كيفية اللعب مع بقية الأطفال، وحتى لو حدث وجلس مع طفل آخر سيتحدث عن أحدث الألعاب أو أحدث عروض التلفاز.

انتهت المشاركة من حياة أطفالنا فلا وقت للأهل للتزاور، وكثيرًا ما يفضل الطفل عدم الخروج مع أهله والبقاء أمام هذا الجهاز الإلكتروني التعيس ليلعب دون إزعاج، والأهل أضعف من أن يفرضوا على أطفالهم شيئًا؛ لأن الهدف الأساسي الذي يعيشون من أجله هو متعة أطفالهم.

عندما سألت أمًّا شابة ذات مرة: لماذا لا تستضيفين أبناء أختك في نهاية الأسبوع ليلعبوا مع أبنائك، وتستضيف هي أبناءك في الأسبوع التالي، وهكذا يتمتع الأطفال باللعب معًا وتأخذ كل منكما نهاية أسبوع راحة من الأطفال؟ أجابتني: ومن لديه القدرة على احتمال مجموعة من الأطفال؟

حتى الأهل لا يقبلون الآن استضافة الأصدقاء في البيوت، فهم يخشون على أثاث المنزل الذي كلفهم الكثير، وعلى نظافة المنزل، وأيضًا على تلك اللُّعب الغالية التي ابتاعوها لأطفالهم ولا يقبلون أن يستخدمها غيرهم. فالأهل اليوم يرون أن عليهم أن يتعبوا ويقدموا لأبنائهم دون غيرهم، ولا يرون في أطفال الآخرين إلا إزعاجًا وتعبًا، ولا يرون ضرورة

للضغط على أبنائهم للمشاركة؛ فمن حقهم أن تكون لهم ممتلكاتهم وخصوصياتهم فهذا يساعد، في رأيهم، على تنمية شخصية الطفل وشعوره بكيانه وأهميته.

وهكذا يعيش الأطفال الوحدة بكل معناها، حتى الإخوة ليس مسموحًا لهم أن يستخدموا ألعاب بعض، فلكل منهم لعبته الخاصة حتى لو اضطررنا أن نشتري من اللعبة الواحدة اثنتين أو ثلاثًا حتى لا يشعر أحدهم أنه مظلوم، وحتى لا يزعجوا الأهل بالخلاف حول الألعاب فليرح الأهل أنفسهم ويشتروا أكثر من نسخة من كل لعبة.

ويتطور الأمر مع زيادة الإمكانات فيصبح لكل ولد جهاز الحاسب الآلي الخاص به، وغرفته الخاصة، وبالتالي جهاز تلفاز في كل غرفة وهلم جرا...

ونتساءل متعجبين ونحن نرى أبناءنا يكبرون دون أن يعير أحدهم اهتمامًا لآخر، يكبرون كل يفكر في راحته وسعادته ولا يرى أنه ملزم بأي واجبات، نتساءل: لماذا تضعف الصلة بين الإخوة؟ لماذا أصبح كل إنسان يعيش في شرنقته لا يحتمل أن يتدخل في حياته إنسان؟ لماذا تنهدم البيوت الشابة؟ لأنه لا أحد تعلم كيف يحتمل وكيف يشارك؛ فأصبح يرى في الزوج الجديد شخصًا موجودًا لإسعاده وليس له حقوق أكثر من هذه.

والأهم.. لماذا هذا الجحود من الأبناء للأهل؟! ألم يقدموا لهم كل شيء؟! ألم يوقفوا حياتهم على إسعادهم؟! ومع ذلك لا نسمع إلا تذمر

الأبناء من صحبة الآباء، ورغبة مستمرة في التخلص من عبء خدمتهم أو برهم، بل وخجلًا من تصرفات الأهل وسلوكهم...

إننا لم نعلم أبناءنا كيف يقدرون ما قدمناه لهم، ولا علمناهم أن احترامنا وبرنا ومراعاتنا واجب عليهم، خشينا دائمًا أن نحملهم عبء مساعدتنا أو القيام عنا ببعض الأعباء قبل أن يكبر سننا وتضعف قدراتنا ونحتاج لمن يخدمنا... والنتيجة ابن أناني لا يفكر إلا في متعته، ويعتبر العالم مسخر لإسعاده.

لماذا لم يتعلم أبناؤنا الحياة؟ لأن الحياة ببساطة لا توجد في تلك الأجهزة الإلكترونية ولكنها موجودة في التعامل مع الناس، مع الأهل والأصدقاء، في العطاء كما هي في الأخذ، أما الحياة في تلك الأجهزة فهي مجرد صور تتتالى.

لقد ظلمنا أولادنا عندما قررنا أن الأهم أن يتمتعوا، وألا يشاركوا أحدًا متعتهم حتى لا تنقص. لقد ظلمنا أولادنا عندما وفرنا لهم الإمكانات المادية ولم نعلمهم أن المتعة لا تكون دائمًا بالمادة، وأن السعادة داخل الإنسان وليست في أي سلعة ترفيهية.

لقد وفرنا لأولادنا اليوم أفضل تعليم، أفضل ملابس، أفضل ألعاب، ونسينا أن الحياة ليست هذا فقط وأن الإنسان لا يمكنه أن يتمتع دون مشاركة، وأنه حتى لو تصور نفسه سعيدًا دون مشاركة الآخرين فإنه لن يتغلب أبدًا على ذلك الخواء الذي في نفسه.

نتساءل كل يوم لماذا يبدون تعساء؟ لماذا لا يكتفون بما لديهم

ويواصلون الطلب و«الزن»؟ إن السعادة أساسًا في الرضا. الأطفال ليسوا في حاجة لمزيد من الألعاب والملابس؛ إنهم في حاجة أكثر للتواصل الإنساني مع الأهل والأصدقاء. الألعاب الغالية لا تفرق كثيرًا عن عروس القماش التي لعب بها أهلنا غير أن عروس القماش أعطت فرصة أكبر لخيال الطفل.

لقد نقلنا لأطفالنا شعورًا بالنقص عندنا، علمناهم أن المادة هي الأساس، وأنهم أهم من الآخرين، بل أهم منا؛ ثم تعجبنا لأنانيتهم. نافسنا بقية الأهل في توفير الإمكانيات لأولادنا فنسينا أن كل ما كان يحتاج إليه أطفالنا هو اللعب، وأن اللعب في حقيقة الأمر فعل يحتاج لعدد أكثر من واحد. لقد دمرت الألعاب الجديدة خيال الطفل وعلمته العنف والأنانية، لقد خلقنا له عَالـمًا بعيدًا عن أرض الواقع فتصورنا أن نجاحه على جهاز الحاسب الآلي هو نجاح في الحياة، وتصور هو أن الحياة في حقيقتها مثل تلك اللعبة على الحاسب الآلي، وأن كل ما يحتاجه من مهارات هي مهارات اللعب على الحاسب الآلي.

لقد جهزنا أبناءنا بكل المستلزمات والإمكانات المادية على أحسن مستوى، وبأغلى الأسعار، ووفرنا له ما حلمنا به وما نتصور أنه يحلم به، لكن نسينا أن الإنسان لن يعيش بمفرده على الأرض بل يحتاج أن يتعلم كيف يعيش مع غيره، وأن كل ألعاب الدنيا لا تعوض الخواء النفسي الناتج عن فقدان الرفقة، سواء من صديق أو قريب.

٥ ـ لهذا لا أصلح زوجًا!

كثيرًا ما أتذكر قصة د. بنت الشاطئ عندما حاول أحد الأشخاص أن يفحمها قائلًا: «مهما فعلتن فالرجال قوامون على النساء». فكان ردها: «أعطونا رجالًا نعطيكم قوامة».

أينما ذهبت، ومع أيّ جلست، هي شكوى واحدة تتناقلها الألسنة: «لماذا أصبح الأزواج اليوم غير مسؤولين؟.. لماذا أصبح من واجب الزوجة أن تقوم بكل الأعمال؟.. لماذا كل ما يفعله الزوج أن يذهب إلى عمله، ثم يعود ليستلقي على الأريكة أمام التلفاز، ولا يفعل شيئًا آخر؟».

للأسف.. فنحن نواجه بالفعل هذه المشكلة؛ فنسبة كبيرة من شباب اليوم يرون أن كل مسؤوليتهم في الحياة أن يذهبوا إلى عملهم، ولا شيء آخر، بل إن بعضهم يرى أنه لا داعي للذهاب للعمل أصلًا، مادام لا يعجبه.

من الواضح أن ظاهرة عدم تحمل المسؤولية قد تفشت في جميع طبقات المجتمع، الغنية منها والفقيرة.. ومع عدم تحمل المسؤولية زادت التفاهة والسطحية في حياتنا بدرجة كبيرة، وأصبح من الصعب أن تجد موضوعًا ذا قيمة تحاور فيه شباب اليوم.. إلا من رحم ربي.

بالتأكيد هناك شباب يقوم بواجباته والتزاماته، وهناك شباب منشغل بالأمور العامة، لكن أغلب الشباب المساهمين في الحياة العامة هم الذين لا تشغلهم حياة أسرية، أما المتزوجون فيكتفون عادة بلقب رب أسرة.

ما الذي حدث خلال الثلاثين عامًا الماضية فخَلَق لنا جيلًا على هذه الحال؟

يمكننا ربط ما حدث بعاملين:

الأول: تحولنا إلى مجتمع استهلاكي خاصة بعد فورة الذهاب للعمل بدول النفط.

ثانيًا: تحول المرأة إلى مُعِيلَة للأسرة.

في السبعينيات انفتح المجتمع بعد طول حرمان على السلع الاستهلاكية الموجودة في العالم، بعد أن قضينا سنوات من التقشف، إذا بالسلع الاستهلاكية التي سمعنا عنها، والتي لم نسمع، تتدفق سواء مع العائدين من دول النفط أو في السوق الحرة في بورسعيد.

ويبدو أن الأهل الذين عانوا الحرمان في الستينيات لم يستطيعوا أن يحرموا أبناءهم من المواد الاستهلاكية كما حرموا هم. وإن كنت أتعجب أحيانًا من تسمية هذه الحالة حرمانًا.

فورة الاستهلاك أصابت من معه مال ومن ليس معه؛ فانطلق الأهل يعملون في دول النفط، حتى الفلاحون تركوا أرضهم الزراعية بحثًا عن عمل يجلب لهم مزيدًا من المال، وبالتالي مزيدًا من السلع الاستهلاكية التي

أصبحوا يرونها على التلفاز ومع العائدين، وأصبح الهدف الأساسي هو جلب السلع الاستهلاكية.

كانت قوانين دول النفط قد تعقدت وأصبحت تمنع اصطحاب الأسرة؛ فلم يعد بإمكان الرجل أو المرأة العاملين بدول النفط اصطحاب أسرهم معهم؛ فبقيت الأسرة في مصر لتنفق مما يرسله الرجل أو المرأة من مال، والرجل أو المرأة في غربتهما يحرمان أنفسهما ليتمتع الأولاد ويشتروا كل السلع الاستهلاكية التي حلم بها الآباء ذات يوم.

وهكذا يمكننا القول أن أموال دول النفط في أغلبها أنفقت إما على شراء بيوت للأبناء، أو سلع استهلاكية معمرة أو غير معمرة.

وظهرت فئة من الشباب اعتادت أن تحصل على ما تريد بمجرد الطلب، وترى في عدم تحقيق أي من رغباتها حرمانًا، الأهل مسؤولون عنه.

وبعد أن كان الشاب يتخرج من الجامعة ويعمل ليدخر المال اللازم لزواجه، لم تعد هذه مسؤوليته؛ فوالداه مسؤولان؛ ألا يكفيهما أنه سيسعدهما بأن يتزوج وينجب لهما أحفادًا! فأصبحت مسؤولية الأهل تجهيز منزل الزوجية وتوفير ثمن الشبكة والمهر، وفي النهاية تحمل تكاليف العرس؛ ألم يكن هذا هو اليوم الذي حلما به دائمًا؟!

وهكذا يجد الشاب نفسه يمتلك بيتًا ـ فيه كل الكماليات والسلع الاستهلاكية ـ لم يبذل فيه أي جهد. بل هو على مدى حياته لم يبذل جهدًا إلا في المذاكرة فلقد كان هذا هو كل المطلوب منه: «يا بني أنا أتعب حتى تنجح في دراستك»، «يا بني إن حصولك على شهادتك هو أمل حياتي».

لم يتحمل الشاب، كغيره من الشباب في العالم، أي مسؤولية في حياته، لم يضطر إلى أن يعمل في الصيف ليوفر مصاريف دراسته، بل يعتبر أنه محروم لو لم يسافر للتصييف مع أصدقائه. أحيانًا أتصور أن الأهل في عقلهم الباطن رأوا أن السعادة أن يعيش ابنهم في نعيم مثل شباب دول النفط، ولم يخطر ببالهم الخمول والتفاهة التي تصاحب هذا.

ومع انتهاء العام الدراسي يرى الشاب أن هذه فرصته للتمتع، وأن على أهله أن يوفروا له إمكانات الراحة والتمتع كاملة، ألم يذاكر لهم طول العام الدراسي ليسعدهم؟!

الآن وقد أصبح هذا الشاب زوجًا فإن أبويه اللذين تعبا من أجله لا يمكنهما التخلي عنه؛ فهو فرحة حياتهما، ويريدان أن يرياه سعيدًا مرتاحًا؛ فيحملان عنه قدر ما يمكنهما من أعباء، خاصة أنهما في الغالب قد بلغا سن التقاعد فلا عمل وراءهما: فها هو الأب يأخذ سيارة ابنه للإصلاح لأن الابن مشغول في عمله، وهذه الأم تأخذ زوجة ابنها للطبيب فابنها مشغول بعمله أو مرهق، وعادة إذا ما احتاج المنزل للإصلاح يقوم الأهل بالإشراف مع زوجة ابنهم لأن الابن لا يفهم في هذا... وهلم جرا. غير تلك النفحات المالية كلما حان موعد دفع قسط المدارس أو شراء ملابس العيد؛ فلا داعي أن يشغل الابن نفسه بتدبير ميزانيته حتى يدخر المال اللازم لتغطية هذه الأعباء.

فإذا مات الأب والأم أو مرضا وقف الابن حائرًا لا يدري ماذا يفعل؛ فقد اعتاد الاعتماد عليهما كليًّا؛ فلا يجد أمامه إلا زوجته تقوم بهذا بدلًا منه.

فنجد الشاب يطلب من زوجته كل ما كان يطلبه من أمه، ويتعجب عندما تبدي اعتراضها فأمه لم تعترض أبدًا، وإذا رفضت الزوجة القيام بعمل ما، يصرف الزوج النظر عن العمل كله؛ فتقف سيارتها عطلانة، وتتعطل أجهزة المنزل، ولا يذهب الأولاد للنزهة أو التمارين أو أي أنشطة تتطلب جهدًا.

وتنهار الزوجة فالأعباء كثيرة، وهو لا يمد يد المساعدة، وهي مسؤولة عنه وعن أولادها، ومسؤولة داخل وخارج المنزل، وتبدأ المشاكل التي كثيرًا ما تنتهي بقرار الزوجة: إذا كان لا يمثل بالنسبة لي إلا عبئًا إضافيًّا فلا داعي له؛ على الأقل سأتفرغ لأولادي.. وإذا كان يستلقي أمام التلفاز طول الوقت، ولا يشاركني مسؤوليات الحياة فمن الأفضل الاستغناء عنه.

كثيرًا ما يحاول أهل الزوجة المحافظة على المنزل بأن يحملوا الأعباء عن ابنتهم بدلًا من زوجها، شارحين لها أن كل الأزواج الآن أصبحوا لا يتحملون المسؤولية.

الأمر الثاني: أن المرأة أصبحت هي معيلة الأسرة. وكثيرًا ما أذكر كلمة قالها قريب لي: «إن عمل المرأة علَّم الرجال الدناءة». مع تحول المجتمع إلى مجتمع استهلاكي، ومع انطلاق الرجال للعمل بدول النفط، ومع تصاعد نغمة حق المرأة في الاستقلال الاقتصادي؛ وجدنا المرأة مسؤولة عن كل شيء: فهي تخرج للعمل لتزيد دخل الأسرة، ولتشعر باستقلالها وذاتها، ولكنها تنفق تقريبًا كل ما تحصل عليه في المنزل وفي توفير مزيد من السلع الاستهلاكية لأبنائها لتعوضهم عن غيابها عن البيت.

ولأن المرأة الآن مرهقة من العمل داخل وخارج البيت، نراها تحاول حماية أبنائها حتى لا يعانوا مثلما تعاني، فلا تطلب منهم أن يقوموا بأي مسؤوليات داخل المنزل، إما بحجة أنهم مازالوا صغارًا أو لأنهم مشغولون بدروسهم.

وتبذل الأمهات من الطبقة المتوسطة والفقيرة جهدًا جبارًا في محاولة دفع أولادهم إلى طبقة أعلى عن طريق توفير التعليم العام حتى لو اضطروا أن يتحملوا من أجله مزيدًا من الأعباء المادية.

كما أن الفورة الاقتصادية أقوى من أن تقاومها تلك الأم البسيطة، وإغراءات الاستهلاك تحيط بها سواء على التلفاز أو في المحال أو في مكان العمل، ويصعب عليها أن ترى أبناءها محرومين من كل تلك المتع الاستهلاكية.

فبدلًا من أن تستغل المال الناتج عن عملها لرفع مستوى الأسرة ككل، نراها تنفقه على السلع الاستهلاكية، بل إن الأم كثيرًا ما تقترض لتوفر لأبنائها ما يرغبون فيه.

وهكذا يخرج الشاب من مثل تلك الأسرة وفي أعماقه قناعة أن تلك هي مسؤولية المرأة، وأن على المرأة أن تعمل من أجل أن يحصل هو على ما يريد؛ خاصة أنه في كثير من الأسر الفقيرة نجد الأب إما أنه لا يعمل ويعتمد على ما تجلبه زوجته من مال لينفق على رغباته، أو أنه لم يتحمل أعباء الأسرة فهجر الزوجة والأولاد وقامت الأم بكل التزاماته.

فإذا كان الابن قد اعتبر أنه من الطبيعي أن تعمل أمه لتقدم إليه ما يريد ويتمناه، فهل ننتظر منه أن يقوم بمسؤولياته تجاه زوجته؟! إنه لم

يتحمل حتى مسؤولية نفسه فكيف له بتحمل مسؤولية زوجة وأبناء؟! كيف يعين زوجته وهو لم يرحم أمه؟! هل نتوقع منه أن يعرف كم تتكلف الأشياء، أو من أين تأتي، وهو قد اعتاد أن يطلبها فيجدها؟! إنها الآن مهمة زوجته، عليها أن تواصل حمل العبء، وأن توفر له ما يحتاجه من طلبات، بل ومن مال في أحيان كثيرة.

أظننا نحتاج أن نبدأ الآن مع جيل من الأطفال نعلمهم تحمل المسؤولية، وأن يشاركوا في أعمال البيت، وأن يتخلصوا من النزعة الاستهلاكية، وأن يعرفوا أن المال يحتاج إلى جهد للحصول عليه، وهكذا ربما بعد ثلاثين عامًا سيكون عندنا شباب يتحملون المسؤولية، وثلاثون عامًا ليست فترة طويلة في حياة الأجيال.

* * *

٦ ـ دعني أريك كيف تقوم بالأمر

التقاعد من الوظيفة أمر صعب، ولكن الأصعب منه التقاعد من المسؤوليات العائلية؛ من الصعب جدًّا على الأم والأب أن ينسحبا في الوقت المناسب تاركين لأبنائهما إدارة حياتهم الخاصة.

في تراثنا تعتبر الأبوة والأمومة وظيفة أبدية، تمتد طول الحياة، لا يمكن للإنسان أن يتخلى عنها، وإلا يكون كمن تخلص من أبنائه.. فهو إذن إنسان أناني، يتخلى عن واجباته وينصرف للاهتمام بنفسه.

لن أنادي مثل الغرب أن يخرج أبناؤنا من البيوت عندما يبلغون الثامنة عشرة، لكنا لا بد أن نعرف أنه عند السادسة عشرة يكون أبناؤنا قد تعلموا منا الكثير، وأعطيناهم قدرًا كافيًا من التربية يمكنهم من البدء في إدارة حياتهم بأنفسهم، وكل ما يحصلونه أو يتعلمونه منا بعد ذلك مجرد إضافات وإرشادات. ولا يجوز أن نواصل تربيتهم كما لو كانوا أطفالًا صغارًا، قد نقوم بدور المستشار، فننبههم لأمر أو نقترح رأيًا أو نقدم نصيحة، لكن، لابد أن نتذكر دائمًا أن الإناء قد امتلأ ولا مجال لوضع المزيد فيه.

لكن الأهل يقولون: كيف نترك الابن وهو مازال صغيرًا غضًّا؟.. لابد أن نوجهه ونحميه؛ خاصة أنه في المرحلة التي سيبدأ فيها في اتخاذ قرارات مصيرية؛ مثل الجامعة التي سيلتحق بها، العمل الذي سيشغله، والزوج الذي سيختاره؛ لا يمكن أن نتركه وهو بلا تجارب ويفتقد الخبرة، لابد أن نساعده على الأقل في اتخاذ القرارات.

ثم يدخل الابن الجامعة ويتخرج ويلتحق بعمل.. وآن الأوان لينسحب الأبوان تاركين ابنهما يكمل حياته. لكن.. لا.. لا يمكن.. فهو مازال ذلك الصغير الغض؛ فها هي الأم توقظه صباحًا حتى لا يتأخر عن عمله، وتشكو من أنه يستغرق وقتًا طويلًا ليستيقظ وينهض، وهي تكاد تموت قلقًا أن يتأخر وبالتالي يتعرض للجزاء ويفصل من عمله الذي بذلا الكثير ليلحقاه به.

والابن قد اعتاد أن تقوم الأم بإيقاظه فلا يشغل نفسه بالأمر. ثم تلاحقه الأم: ارتدِ ملابس ثقيلة؛ فالجو بارد.. هذا زي لا يناسب العمل... ثم تعد له إفطاره وتتعذب أو تتذمر لأنه لا يريد أن يفطر، وتظل تكرر عليه أهمية وجبة الإفطار، وتشكو لكل من تقابله إهمال الولد لصحته فهو يخرج دون إفطار، ولا يخطر ببالها أنه ربما يفطر مع زملائه في العمل، وحتى لو عرفت؛ فهل إفطار العمل مثل ذلك الذي تعده هي؟!

وتمضي يومها لا يشغلها إلا ابنها الذي خرج متأخرًا دون إفطار، وماذا ستعد له على الغداء الذي لن يتناوله في الأغلب لأنه سيخرج مع أصدقائه.

ويبقى الوالدان منتظرين عودة الابن، متلهفين على لحظات يمضيها معهما في البيت؛ لعله يحدثهما أو يطمئن قلبهما على شؤونه وشؤون عمله. لكنه يدخل ويخرج كالإعصار متحدثًا في الهاتف ، منشغلًا بتغيير ملابسه استعدادًا للخروج مع أصدقائه، والأبوان جالسان يتساءلان عما حدث لشباب اليوم.

وتنقضي الأيام والأبوان يدعوان بأن يرزق الله ولدهما بالزوج الصالح حتى يفرحا به ويمتلئ البيت بالأحفاد.

وها هو اليوم الموعود قد حان لقد قرر الولد أن يرتبط. وهنا إما أن يبدي الأبوان اعتراضهما على الاختيار، وإما أن يكتما رأيهما متحسرين على أن ولدهما لم يحسن الاختيار فلم يتزوج بفلانة التي يريانها أصلح.

لكن في الأغلب يسعد الأبوان، فها هو اليوم الذي انتظراه طويلًا وحلما به، وكل ما يتمنيانه أن يسعد ابنهما في حياته.

وهنا يواجه الأهل الموقف الأصعب؛ فالمنطق والعقل يقولان: إن ولدهما هو من سيتزوج، وهذه حياته، عليه أن يرتبها كما يشاء، لكن أين هما في هذا كله؟ هل يكتفيان بالجلوس في مقاعد المتفرجين؟ وقد يتحملان أعباء الزواج أو يتحمله ولدهما.. ولكن، أليسا أقرب الناس إليه.. أليس هو فرحتهما.. إذن، كيف يبتعدان؟.. أو كيف يبعدهما هو؟ هذا ليس عدلًا، لقد انتظرا هذا اليوم العمر كله ومن حقهما أن يشاركا فيه، خاصة أنهما يملكان الخبرة المطلوبة.

وتبدأ تدخلات الأهل، بشراء الأشياء أو تقرير ما يشترى.. فإذا

اعترض الأبناء أو رفضوا هذا التدخل، تبدأ مرحلة النصائح: «يا بني اسمعني.. إني أقول لك ذلك لأنني أفهم فيه أكثر منك».. وينتهي الموقف بتعليقات عن هذا الزمن الأغبر الذي تسير فيه الأمور بالمقلوب، ويتصرف الشباب بمفردهم كأنهم يفهمون كل شيء، ولا يعطون اعتبارًا لأهلهم ولا يحترمون آراءهم.

وهنا قد يستسلم بعض الأبناء إما تجنبًا للمشاكل والرغبة في إتمام الزواج، وإما لأن الابن اعتاد أن يقوم عنه أهله بكل شيء، فتقوم المشاكل بين أهله والعروس التي ترغب في أشياء يرى أهل العريس أنها غير ضرورية، أو أنها غير عملية، أو مرتفعة الثمن. وقد تقوم المشاكل بين أهل العروسين بعد أن انسحب العروسان وتركا لأهلهما مهمة إتمام الزواج.

وهكذا يختار الأهل ويقررون حياة وبيت شباب في الثلاثين بينما هم في الستين من عمرهم أو أكثر؛ فهم يعرفون ما هو أصلح للزوجين، وما سيسعدهما، ويفهمان في الذوق والجودة أكثر من الشباب.

أما إذا رفض الولد تدخل أهله.. اتهماه أنه باعهما إرضاءً لزوجه، وأنه فضل زوجه عليهما. وتبدأ حياة العروسين مكبلة بمشاكل تسرق فرحتهما، ولم يكن لها داعٍ أصلًا، ويعتبر الأبوان أن الابن أو البنت قد أزاحهما جانبًا ووضعهما على الرَّف وأنهما مجرد إكمال للصورة العائلية.

وبعد أن ينتقل العروسان من بيت أسرتيهما، يظل الأهل يلاحقونهما في بيتهما الجديد، فتتضمن كل زيارة أو مكالمة رأيًا أو نصيحة بشأن ترتيب البيت أو إدارته، أو تذمرًا أو تعليقًا عن الأبناء الذين لم يعودوا يستمعون

لأهلهم. وقد يبادر بعض الأهل بتغيير ما يرونه خطأ في منزل أولادهما دون استئذان، فينقلون الأثاث من مكانه، أو يتفقون على تنظيف البيت، أو يشترون لهم الطلبات التي يرون أن البيت يحتاجها.

وتظل الأم تلاحق ابنتها، فتسألها عن أدق شؤونها: متى ناما؟ متى خرجا؟ وإلى أين؟ ماذا أكلا؟ في محاولة منها لضم البيتين وإدارتهما معًا لتشعر أنها لم تفقد أولادها ولم يبتعدوا أو يستغنوا عنها.

ويأتي الأحفاد.. ويا لروعة الأحفاد! وها هي الحياة تبدأ من جديد. يبدو الأمر كما لو أنها فرصة ثانية للأهل ليقوموا بتربية الأولاد بعد أن كبر أولادهم.

إذا كانت الأم الشابة عاملة فإنها تترك طفلها عند أمها أو حماتها، ومهما أبدت الأم انزعاجها من تحمل مسؤولية الطفل، وهو انزعاج حقيقي لأن تربية طفل تتطلب جهدًا كبيرًا لا يناسب كبار السن عادة، إلا أنها تكون سعيدة لمجيء هذا الطفل ليحميها من مواجهة فراغ حياتها.. فلا شيء يخيف الإنسان قدر الفراغ والوحدة والبيت الخالي.

إنها فرصة عمر للجدين؛ فها هما يقومان من جديد بدور أتقناه، وهما لا يربيان الصغير فقط لكنهما يديران حياة الآباء أيضًا!! وتحملهما مسؤولية الطفل يسمح لهما أن يتدخلا في كل شيء، مثل مواعيد النوم والخروج ونوعية الأكل، وعذرهما دائمًا موجود: ننسق الأمور لنتمكن من رعاية الطفل.

أما إذا لم تكن الأم الشابة عاملة، فهذا لا يحميها من تدخل الأهل،

خاصة أنهم يرون في أنفسهم أهل الخبرة، لذلك يلاحقونها بالنصائح والتعليقات.

ويغضب الأهل إذا لم يستمع أولادهم لنصائحهم وتوجيهاتهم. وغالبًا ما يقضون أغلب وقتهم يتباحثون في شؤون أولادهم، ويقررون الطريقة التي يجب أن يتصرف بها أولادهم، ويتذمرون من الجيل الجديد من الآباء الذين لا يجيدون القيام بدورهم في الحياة ويفسدون صغارهم ولا يهتمون بصحتهم ولا بمواعيد نومهم.

منذ ولادة الطفل الأول في الأسرة، ينشغل الآباء به وبإخوته من بعده، فلا يعملون إلا من أجلهم، ولا يفكرون إلا فيهم، ويستمرون هكذا حتى بعد أن يكبر الأبناء وبالتالي يفقدون، عندما يتقدمون في السن، مهارة الانشغال ببعض والاكتفاء كل بالآخر.. وربما يعتقدون خطأً أن الآباء الصالحين لابد أن ينشغلوا بأبنائهم ويحملوا عنهم الأعباء.. وفي الوقت نفسه لا يجوز أن يحملوا أبناءهم عبء رعايتهم في شيخوختهم!

أعرف أنه من الصعب أن يتقاعد الأهل عن الاهتمام بأبنائهم ورعايتهم مهما تقدم بهم العمر.. على الأقل الاهتمام المعنوي كملاحقتهم للاطمئنان عليهم، لكن الحقيقة أن عدم التقاعد يدمر العلاقة بين الآباء والأبناء، لا بد أن يعرف الآباء متى ينسحبون من حياة أبنائهم، وأن يتعلم الأبناء أن هناك وقتًا لا بد أن يفطموا فيه من متابعة أهلهم، وأن يتحملوا مسؤولياتهم بأنفسهم.. لا بد أن يعرف الأهل أنهم أصبحوا غير مسؤولين إذا بلغ أبناؤهم السن التي تمكنهم من رعاية أنفسهم وإدارة أمورهم، حتى لو ارتكبوا أخطاء أو فشلوا في أمور.. فهكذا يتعلم الإنسان.

المطلوب أن يعرف الأهل كيف يحولون صلتهم بأبنائهم إلى نوع من الصداقة، لا تشبه الصداقة بين الشباب، لكنها صداقة راقية تتسم بالود والحب والثقة، يعرف فيها كل طرف أن الطرف الآخر موجود حين يحتاجه، وأنه يسعد لسعادته، يتألم لألمه، قد يقدم له النصائح، لكنه لا يفرض عليه رأيًا.

لابد أن يتقبل الأهل، ويعلموا أبناءهم، منذ الصغر، الاستقلال في بعض الأمور كاختيار ما يلبسون أو ما يأكلون مادام في حدود المقبول، ثم تزداد مساحة الاستقلال الممنوحة للأولاد مع تقدمهم في السن.. فهذا يسهل فكرة تقبل استقلالهم الكامل عنا ذات يوم، حتى لو كان ذلك صعبًا.. فهو سنة من سنن الحياة.

* * *

٧ ـ هذا خطأ!

من أشد الأمور إرباكًا للأطفال معرفة الحدود، أو معرفة ما هو الصواب وما هو الخطأ. والصواب والخطأ يتنوعان بتنوع الأشخاص والأفكار والمواقف؛ وهكذا نستطيع أن نتصور قدر الإرباك الذي قد يعانيه الطفل.

والخطأ والصواب في الغالب يتضمنان الحرام والحلال، لكنهما يتجاوزان ذلك بكثير، إذ تدخل فيهما آراء الأهل ورغباتهم وتفضيلاتهم، ومخاوفهم المادية والمعنوية، والمظاهر الاجتماعية، والعرف، والتراث، والمكانة الاجتماعية.

وتتفاقم المشكلة بالنسبة للأطفال إذا كان في البيت أكثر من مربٍّ، مثل الجد أو الجدة، أو عندما يتدخل في الأمر العم أو الخال، لأن كل العوامل السابقة تتداخل مع آراء الأهل الشخصية ومشاكلهم النفسية وردود أفعالهم؛ فينتج عنها قدر لا يحصى من الصواب والخطأ لا يمكن للطفل أن يستوعبه.

وبجانب أحكام الصواب والخطأ، التي نمطر أطفالنا بها طول اليوم،

تصادف الطفل أمور نطلق عليها نحن الكبار: أمورًا تافهة، مثل أن يحب، أو يرفض أحد الأطفال اللعب معه، أو أن يدعوه الآخرون، أو لا يدعونه لأعياد ميلادهم، أن يحصل أو لا يحصل على هدية... كثيرًا ما نطلب من الطفل ألا يشغل باله بها، ونقول إنها غير مهمة ولا تستحق أن يبكي أو ينزعج بسببها. المشكلة أن هذه الأمور التافهة تتضارب وتتبدل طول الوقت؛ فما هو تافه اليوم قد يكون مهمًّا غدًا، والتصرف المقبول من إنسان معين لا نقبله من غيره، وما هو تافه عند إنسان نجده مهمًّا عند آخر.

وهكذا يقع الطفل في مصيدة يحاول الخروج منها بكل الأساليب؛ من بكاء واعتذار وتدلل وإخفاء وكذب... محاولًا العثور على المفتاح المناسب لكل شخص مسؤول عن تربيته، أو قادر على التأثير على من يربونه، ومحاولًا الحصول على أكبر قدر من المسموحات، وأقل قدر من الممنوعات.

هكذا نجد الطفل يتصرف أحيانًا من تلقاء نفسه خوفًا من الدخول في دائرة الممنوعات، وأحيانًا يضطر للتلاعب لينجو من ظرف معين؛ فبعض الأمور مسموح بها في المنزل لكن العم أو الخال يعترضون عليها، أو العكس.. فنجد الصبية مثلًا لا تكثر من الحديث في الهاتف في وجود عمتها حتى لا تنتقدها، وقد تزيد من مساهمتها في الأعمال المنزلية خوفًا من لوم خالتها، أو لا تقرأ كتابًا معينًا أو مجلة في وجود خالها حتى لا تتهم بالتفاهة. حتى إذا عاد الأهل والأقارب إلى بيوتهم، عادت الأمور إلى ما كانت عليه أصلًا، سواء كانت قيود البيت أخف أو أكثر.. فالطفل أكثر استقرارًا مع القيود التي اعتادها.

وتتفاقم المشكلة في حالة وجود شخص حازم ضمن العائلة سواء عم أو خال، له اعتبار ويهابه الجميع أو لا يحبون مخالفته. وعند وجوده تتضاعف الممنوعات وتزيد قائمة الأخطاء، إكرامًا له. ويطالب الآباء أبناءهم بالتصرف بشكل مغاير لما اعتادوه.. مثل ارتداء ملابس معينة، أو الامتناع عن مشاهدة برامج معينة على التلفاز، أو غسل أطباقهم بعد العشاء..

المشكلة أن التوتر من وجود ذلك الشخص الحازم ينتقل غالبًا إلى الأولاد، فيتصرفون في وجوده على نحو مخالف لما اعتادوه، ويتولد لديهم نوع من التوتر والنفور تجاه هذا القريب أو الصديق أو الجد.

تنازل الأهل عن حقهم في تربية أولادهم، أو خوفهم ومحاولتهم إرضاء الآخرين أو تجنب المشاكل العائلية يجعل الأولاد يفقدون حس الصواب والخطأ، فهم ممنعون من عمل ما أحيانًا ومسموح لهم به أحيان أخرى، كما أنهم يفقدون بعض التقدير والشعور بحماية أهلهم لهم، وقد يشعرون أن أهلهم ضعاف أو مهزومون؛ فيشعرون بالنفور من هذا الدخيل الذي يفرض القوانين ويطلب حقوقًا لا يفهمونها، أو لا يرون لها ضرورة.. سواء كان هذا الدخيل محقًّا أو مخطئًا، ظالمًا أو مظلومًا.

أحيانًا يكون للقريب دور أساسي يقوم به، لم يكن من حقه أصلًا، وربما لم يرغبه، ولكن الظروف حملته مسؤولية القيام به، مثل دور العم أو الخال في حالة وفاة الأب أو دور الخالة أو العمة في حالة وفاة الأم، أو سفرهما، هنا يكون الدور أساسيًّا ولا يمكن أن نعتبر أنهم يتدخلون فيما لا يعنيهم، أو يقومون بدور ليس لهم.

إن اختلاط الأدوار وقيام أحد الأقارب، مثل الجد أو العم أو الخال، بوضع قوانين، أو الاعتراض على ما هو قائم، دون أن تكون مسؤوليته؛ قد يحرم هذا القريب من القيام بدوره الأصلي.. فالجدة ليس دورها الأصلي أن تربي أحفادها. بل دورها أن تمنح الحب والحنان والأمان، أن تنقل التراث وكثيرًا من المعلومات التي لا يجد الأبوان الوقت أو الخبرة ليقدماها لأولادهما، والوضع نفسه قائم بالنسبة للعم والخال؛ إنهما نبع حنان، وملجأ للطفل والابن إذا احتاج الحديث في أمر يشغله لا يمكنه أن يحدث فيه أبويه، وكم من عم وخال أنقذا الابن المراهق من مأزق وقع فيه.

إن لعبَ العم أو الخال دور المربي الأكبر لا ينتج عنه إلا نفور الأولاد منه، وشعورهم أن مجيئه لا يحمل معه إلا مزيدًا من النكد والمشاكل. وهنا دور الأب والأم، ألا يتنازلا عن دورهما، ولا يخافا ولا يتملقا الكبار، ولا يكثرا من الشكوى والنوح على تدخل الآخرين في حياتهم.

لكن كثيرًا ما يجد العم أو الخال نفسه في هذا الموقف دون أن يقصده؛ فأحيانًا يخشى الأهل أن يبدوا ضعافًا أمام الأجداد أو الأعمام، أو لا يحسنون تربية أولادهم فنراهم يبالغون في فرض الممنوعات والإكثار من التوجيهات عند وجود ذلك العم أو الخال، وهو ما لا يفعلونه في غير وجودهم.

كثيرا ما يتخبط الأهل في تربية أولادهم في محاولة منهم لإرضاء الأهل أو تجنب المشاكل، أو للحصول على اعتراف الأهل بأنهم أجادوا عملهم وأحسنوا تربية أبنائهم.

إن اختلاط الأدوار من أسوأ ما يصيب الأسرة، والتدخل في شؤون الأسرة لا ينتج عنه أي خير؛ فهو إما يتسبب في سوء العلاقة بين الأهل، أو نفور الأبناء من الأهل المقربين، أو فقدان الأقارب لدورهم كمصدر للحنو والمودة والخبرة، وقيامهم بإدارة منزل وحياة ليسوا مسؤولين عنها ولا من حقهم أن يديروها.

هذا لا يعني أن نلغي تمامًا دور الأقارب في توجيه الأبناء، أو نمنعهم من مساعدة الأبوين على تربية الأبناء، لكن ليس من الصحي أن يكونوا مصدر خوف ونفور للأبناء، أو مصدر قلق للأهل.

هناك أشياء تبقى ممنوعة، وتبقى خطأ حتى لو فعلناها، مثل كل ما حرمه الله. وهناك ممنوعات مرتبطة بالسن فهي ممنوعة على الطفل ولكن يسمح له بها في وقت معين، وهناك ممنوعات نظرًا للظروف، قد تتغير مع تغير الظروف. أحيانًا تمنع الأم أبناءها من شيء مباح لأنها متعبة أو منزعجة.

لا يستطيع الأهل أن يمسكوا في أيديهم بقائمة ممنوعات، فهم في النهاية بشر قد يملون فيتغاضون عن بعض السلبيات، وقد يجدون أنهم بالغوا في بعض الممنوعات، قد لا يستطيعون توضيح وجهة نظرهم دائمًا، ولكن في النهاية، قليل من الشرح والتفاهم، والاعتراف أحيانًا بالخطأ، يجعل الأمور تسير بأقل الأضرار، لن يتعقد الطفل باقي حياته لأننا حرمناه من شيء مباح، ولا لأننا سكتنا مرة على خطأ ارتكبه أو ارتكبه أحد إخوته، الأطفال ليسوا زجاجًا يتهشم مع أول طرقة.. بل ربما يفيدهم بعض التضييق والحرمان ليستعدوا لمواجهة الحياة.

لكن لابد أن تكون هناك مساحة للتفاهم تسمح للطفل أو المراهق أن يناقش أهله في مسائل المسموحات والممنوعات، دون خوف أو تباعد ونفور.

قد يخطئ الأهل أو يخطئ الأبناء، وقد يثور الأهل أحيانًا أو يتغاضون في أحيان أخرى، وقد يضيق الأبناء بأهلهم ولا يقدرون مواقفهم، لكنهم سيعرفون ذات يوم أن هذه مهمة الأهل، قد يجيدونها أو لا يجيدونها، لكنهم في النهاية مخلصون في محاولتهم تربية أطفالهم ومنحهم الأمان والراحة.

* * *

٨ ـ طاعة الوالدين

يؤمن الناس أن على الأبناء أن يطيعوا آباءهم بشكل مطلق، حتى يبارك الله لهم في حياتهم. والحقيقة أن فكرة الطاعة بهذه الطريقة تحتاج بعض التفكير؛ فالأطفال في صغرهم، حتى السابعة، يحتاجون أن يتعلموا الطاعة، لكن الطاعة هنا بمعنى أن يطيعوا الكبار حتى لو لم يقدموا تبريرًا.

لكن متى استطعنا أن نشرح للطفل لماذا عليه أن يطيع، فلابد أن نفعل ولا نتعلل بضيق الوقت أو الاستعجال.

ربما من الأهم أن ندرب الطفل على الالتزام بدلًا من تدريبه على الطاعة العمياء؛ فهو ملزم بأن يأكل كل الطعام الذي وضعه لنفسه، أو وضعته له أمه، شرط أن تكون الكمية معقولة، لأننا لا يمكننا إلقاء الطعام في صندوق النفايات لأنه حرام. على الطفل أن يلتزم بأن ينام في وقت مناسب لأن هذا هو المطلوب ليتمتع بصحة جيدة. عليه أن يساعد في ترتيب غرفته لأنه عضو في العائلة عليه ما على باقي أفراد الأسرة من التزامات، بما يتوافق مع عمره. عليه أن يؤدي ما عليه من واجبات مدرسية لأنه ملزم بهذا.

وهكذا نرى أننا كثيرًا ما نخلط بين الالتزام والطاعة، كلاهما مطلوب لكن ما ليس مطلوبًا هو الطاعة العمياء، الطاعة التي تفرضها رغبة الأهل في أن يتم الأمر على الشكل الذي يريدونه.

لا يمكن للطفل أن يتعلم الالتزام دون أن يفهم، ولو بأبسط الطرق حسب قدراته. من الممكن أن نتدرج في إفهام الطفل لماذا عليه الالتزام بأمور معينة. المشكلة أن الأهل غالبًا ما يعتبرون رد الطفل على طلب معين بكلمة «لماذا؟» هو سوء أدب يستحق الرد عليه بشكل عصبي أو معاقبته، بينما كل ما يريده الطفل هو سبب يجعله يقوم بأمر ما.

لو حاول الأهل أن يبحثوا عن أسباب كثير من الطلبات والممنوعات، لاكتشفوا أنهم ببساطة يمكنهم التخلي عنها، أو تحويلها إلى صيغة اقتراح بدلًا من صيغة الأمر.. ولتضاءلت قائمة الممنوعات كلما بحثنا عن سبب منطقي لهذا المنع.

عندما نستخدم الخوف من العقاب لنضمن الطاعة نخلق إنسانًا مستكينًا في أحسن الأحوال، وجبانًا ضعيف الشخصية في أغلب الأحيان. ربما يسعد الأهل بطفل مستكين لا يعترض كثيرًا على طلباتهم ولا يناقشهم في قراراتهم، لكنهم سوف يرفضون هذه الاستكانة ويعترضون على هذا الخضوع ذات يوم عندما تكون بين زملائه في العمل أو مع زوجته.

يتساءل الأطفال طول الوقت؛ إما ليفهموا أو ليحصلوا على مزيد مما يريدون: لماذا لا أشاهد هذا البرنامج؟ لماذا لا آخذ مزيدًا من الحلوى؟ لماذا لا أذهب إلى صديقي؟ لماذا لا يمكنني الحصول على هذه اللعبة؟.. أسئلة

لا تنتهي تصيب الأهل بالجنون، وينتهي بهم الأمر إما برد غير منطقي، أو بفقدان أعصاب، أو باستسلام لمطالب الطفل.

لذلك أظن أن تعليم الأطفال الالتزام يخفف كثيرًا من هذه المواقف بمرور الوقت. فإذا تأكد الطفل أنه غير مسموح له إلا بقطعة حلوى واحدة، فغالبًا لن يطلب الثانية، ولو طلبها فسيطلبها مرة ولن يعيد الطلب. لو وضحنا له من البداية أن هناك برامج تلفاز لا تناسبه لن يلاحقنا طالبًا الإذن بمشاهدة برنامج غير مسموح له برؤيته.

كلما كان الأهل مرهقين أو مشغولين، كثر اتهامهم لأطفالهم بسوء الأدب، فيردون على طلباتهم أو تساؤلاتهم بإلقاء مزيد من الأوامر، ويطالبونهم بتنفيذها فورًا..

لكن الطفل هو أهم مسؤوليات الأهل، وهو أولى بالوقت والجهد من الالتزامات الأخرى التي تشغلنا عنه. مشكلتنا أننا نخلط بين أعبائنا، فنعتبر انشغالنا بإعداد الطعام أو تنظيف المنزل أعمالًا أساسية للطفل، فهو يحتاج إلى الطعام، وإلى مكان نظيف يعيش فيه، هذا صحيح؛ لكنه أولًا يحتاج إلى التفاهم مع أهله.

عندما يجيب الأهل على أسئلة الطفل، دون اتهامه بسوء الأدب وعدم الطاعة، يساعدونه على أن يصبح إنسانًا ناضجًا محترمًا، يحترم نفسه ويحترم الآخرين، ويتعلم كيف يحاور ويناقش، مما يساعده في حياته المستقبلية. حتى لو اعتبر الأهل أن النقاش مع الأطفال هو نقاش عبثي، لن يصل إلى شيء؛ إلا أنه في الحقيقة يعلمه أمورًا كثيرة لا يتاح له أن يتعلمها إلا بالخبرة والقدوة والتسامح الذي يمارسه معه أهله حين يناقشونه.

لكن سماحنا لأطفالنا بالنقاش والتعبير عن وجهة نظرهم لا يعني أن يفقدوا احترامهم لنا، ولا أن يعتبروا أنفسهم أندادًا لنا. لابد أن نعلم الطفل كيف يناقش بهدوء وتهذيب، وأن يعرف في النهاية أنه يتحدث مع والده وليس صديقه الذي يلهو معه. إن الأفكار الحديثة التي تنادي أن نسمح للأطفال أن يعبروا عن أنفسهم لابد أن يكون لها حدود، فاحترام الأهل والتحدث معهم بتهذيب موضوع غير قابل للنقاش، والتحدث مع الأهل بتحد أمر مرفوض. ولعل هذا يتطلب من الأهل أمرين أساسيين:

الأمر الأول: أن يكونوا حازمين مع أولادهم، وهنا أقصد الحزم وليس القسوة والعنف، ولا يتنازلوا أو يضعفوا أمام أبنائهم باعتبارهم مازالوا صغارا وسيعرفون كيف يتصرفون بذوق وتهذيب عندما يكبرون؛ لأن الذوق والتهذيب واحترام الكبار في السن سلوك يتعلمه الإنسان منذ طفولته.

الأمر الثاني: أننا لا يجوز أن نطالب الطفل أن يكون مهذبًا ومحترمًا لو لم نعامله بتهذيب واحترام، ونتعامل مع بعضنا، كآباء، بتهذيب واحترام.

كثيرًا ما نطالب الطفل بالطاعة من منطلق أن يكف عن إزعاجنا، وليس من منطلق مبدأ أو نظام ثابت نسير عليه. فيرتبك الطفل حين نعطيه أوامر متضاربة؛ كأن نأمره أحيانًا باللعب مع أطفال الأهل أو الضيوف، ثم نمنعه من اللعب معهم في أوقات أخرى. أو نأمره أن يأكل صنفًا من الطعام وفي مرة أخرى نسمح له أن يتركه حتى لا يزعجنا باعتراضاته. وقد نمنعه من مشاهدة برنامج على التلفاز ثم نسمح له برؤيته لأننا

حريصون أن نراه. أو نمنعه من السهر ثم نخرج ونتأخر فنسمح له أن يسهر تلك المرة.

من الطبيعي أن الظروف تتغير وقد نغير أوامرنا لأسباب مختلفة لا يفهمها الطفل؛ لكن من الأفضل أن نشرح له، ولو باختصار، لماذا سمحنا له أو منعناه هذه المرة، حتى لا يصاب بالإرباك ويفقد ثقته فينا.

الالتزام هو الطاعة مع الفهم، هو شعور الطفل أنه كائن له حقوق وعليه واجبات، لذلك من المهم أن يعتاد الطفل القيام ببعض التزاماته المنزلية بالتدريج، مثل وضع حذاءه في مكانه، جمع ألعابه ولو بمساعدة الأم، رفع طبقه من المائدة بعد الأكل.

لابد أن يتذكر الأهل أن الإنسان إذا أراد أن يطاع، فلابد أن يأمر بما هو مستطاع، ومن ضمن الاستطاعة أن نعلم الطفل كيف يقوم بالأمر قبل أن نأمره بعمله. التشارك في العمل ونقاش أمور الأسرة يُوجد نوعًا من التقارب بين الأهل وأبنائهم.. تقارب سيحتاجه الجميع بعد ذلك، الأبناء حين يكبرون، والأهل مع تقدمهم في السن.

ربط الطاعة بالحرام والحلال كارثة، فالله أمرنا أن نبر أبوينا لا أن نطيعهم طاعة عمياء، يجب أن يتعلم الابن كما يتعلم الأهل، أنه ليس مجبرًا على سلوك طريق معين في حياته لمجرد رغبة أهله، فالابن الذي يتصور أنه إذا لم يدخل كلية الطب كما يتمنى أبوه فهو ابن عاق؛ سيتعس نفسه ويتعس أبويه. والفتاة التي تتزوج شخصًا لمجرد أن هذه رغبة أمها ويقنعها من حولها بأن الزواج سيكون مباركًا برضا أمها، تخطئ في حق نفسها وفي حق من ستتزوجه لو لم تكن مقتنعة به كإنسان.

إننا نستخدم غضب الأبوين كسيف مسلط على رقاب أولادنا في كل شأن من شؤون حياتهم مهما كان بسيطًا. فالابن إذا لم يأكل طعام أمه فقد استحق غضبها الذي هو من غضب الله، بل أحيانًا من ينتقد برنامج تلفاز يحبه أبواه يكون قد أتى بكبيرة.

هذا الخلط يولد كثيرًا من المشاكل، ويفرز شخصيات مهزوزة لا أمل في أن تقوم بدورها في الحياة. إن بر الوالدين أمر فرضه الله علينا جميعًا، والبر غير الطاعة، البر ألا نؤذيهما ولو بالكلمة أو الهمسة أو اللفتة، أن نقوم على خدمتهما، أن نحترمهما ونقدرهما، وليس أن نعيش حياتنا كما يرغبون، فنتزوج ممن يفضلون، ونعمل بالوظيفة التي يرغبون أن نعمل فيها، ونأكل الطعام الذي يحبونه، كل هذه الأشياء مسؤوليات خاصة، مكلف بها الابن فقط، ويسأل عنها بنفسه أمام الله والمجتمع، ولا دخل لبر الوالدين فيها.

* * *

٩ ـ المساواة

لقد تغير العالم.. وتغير مجتمعنا.. أصبحنا في زمن لا يترك شيئًا على حاله. لكننا لو دققنا النظر في الأسباب التي أوصلتنا لذلك، نجد أننا قررنا أن التقدم يعني أن ننقل مدنية الآخرين إلينا، لا أن نستفيد منها ونكيفها بما يلائمنا. والأغرب أننا غالبًا ما نتأخر في نقل مدنية الآخرين؛ فنقتبسها بعد أن يكتشفوا عيوبها، ولا نحاول أن ننظر في الأفكار التي توصلوا إليها.. وإنما نصمم على أن نسير الطريق كاملًا لنصل إلى النتيجة نفسها.

من الأفكار التي اقتبسناها من الغرب: المساواة بين الرجل والمرأة. وأنا لا أعترض على المساواة بين البشر في الحقوق والواجبات. لكن من السخافة أن نقرر أنه لابد أن يكون لكل من الرجل والمرأة نفس الاحتياجات والرغبات، وحتى القدرات.

هذا لا يجعل نظرتنا للمرأة أو الرجل دونية، إنما من العقل أن نتقبل اختلافاتهما. لقد قررنا أن من حق المرأة أن تحصل على كل حقوق الرجل، وللأسف خلطنا بين الحقوق والأعباء بالنسبة للطرفين. وهذا أمر عجيب.

لقد قررنا أن المساواة التامة تعني أن تقوم المرأة بكل ما يقوم به الرجل، وأن يقوم الرجل بما تقوم به المرأة. فاقتنعنا وأقنعنا المرأة أنها لابد أن تخرج للعمل خارج بيتها كي تحصل على حقوقها، وأن تقوم بجميع أنواع الأعمال مهما تطلبت من جهد أو وقت.. ثم أخذنا ننادي أن على الرجل أن يقوم بأعباء البيت من طهي وترتيب وتربية أولاد. بل وصل الأمر في النهاية أن اعتبرنا أنه من الطبيعي في كثير من الأحيان أن يتولى الرجل إدارة شؤون البيت وتتولى المرأة العمل في الخارج والإنفاق على الأسرة.

ليس عندي اعتراض على عمل المرأة في الخارج، ولا على قيام الرجل ببعض أعباء المنزل، على أن يكون ذلك خيارًا وليس فرضًا. لقد تبنينا الفكرة حتى أصبح ينظر إلى المرأة التي لا تعمل نظرة دونية، وتعتبر متخلفة ومتنازلة عن حقوقها، ومقصرة في واجباتها تجاه المجتمع. وأصبح ينظر إلى الرجل الذي لا يقوم بدور في أعباء البيت من غسل الأواني والطهي والغسيل على أنه زوج أناني لا يساعد زوجته، ويتخلى عن دوره كزوج وأب.

ولكننا مجتمع شرقي لا يقبل أن يتولى الرجل أعمال المنزل، وما زال هناك من ينظر إلى الرجل الذي يتولى الغسيل والترتيب في البيت على أنه فاقد لرجولته، وأن زوجته مهملة لا تجيد القيام بعملها، وأنها زوجة وأم فاشلة. فهذه النظرة متغلغلة في حياتنا مهما وضعنا في كتب المدارس صورًا تظهر الأب يغسل الأواني والأم تقرأ لأطفالها.

ثم ربينا الفتاة على أنها لابد أن تعمل خارج البيت لتحفظ مستقبلها ويكون لها دور وأهمية في الحياة.. ولا أمان للحياة ما لم تكن لها وظيفة تحميها من الحاجة إلى زوج ينفق عليها كما يشاء ويحرمها متى شاء؛ فمن الضروري أن يكون لها مالها الخاص الذي تتمتع به فلا تحتاج للرجل.

فلننظر ماذا حدث.. لقد خرجت بناتنا للعمل، مؤمنات أن هذا صالحهن المطلق، فبه يحصلن على كيان معتبر ومكانة مرموقة.. لم تعد المرأة تبحث عن عمل يناسب ظروفها وحياتها، بل أصبح على حياتها أن تتلاءم مع ظروف عملها. لم يعد يعنيها مواعيد العمل ولا الإجازات، كل ما يهمها أن تتقدم في مجال عملها، وتحقق نجاحًا وتحصل على أعلى راتب.

وامتلأت شوارعنا ومكاتبنا بفتيات حققن ذاتهن وأصبحن نساءً عاملات. وبدأت تظهر مشكلة جديدة، فتلك الفتاة العاملة التي حققت ذاتها بعمل ناجح، رأت أن من حقها أن تدقق في اختيار الزوج؛ فهي تعمل مثله ولديها إمكانياتها المستقلة مثل الراتب والسيارة؛ وبالتالي فهي ليست في حاجة لزوج يوفر لها إمكانات معيشية. كما أنها غير مكلفة بأية أعباء في بيت أبويها؛ فقد حمل عنها أهلها كل الأعباء حتى تحقق ذاتها في العمل، إنهم يعتبرونها تتعب في عملها ولا يجوز تكليفها بالمهام المنزلية، لذلك، هي تعود لتجد طعامها جاهزًا وملابسها مغسولة. إذا حدثت تلك الفتاة عن الزواج نجدها مترددة تفكر: ما الذي ستكسبه من الزواج؟.. فهي تحتاج لزوج لديه نفس إمكانياتها على الأقل، ويحترم انشغالها بعملها ويقدر عملها، يكون مكملًا رائعًا للصورة التي رسمتها لحياتها: زوج من مستوى مناسب، ذو مظهر طيب ومستوى ثقافي، وفوق كل هذا حساس

ورومانسي. وإلا فما الداعي لزوج يضيف عليها أعباء. وإذا حدثناها عن الصحبة أجابت: إنها ليست في حاجة لصحبة فلديها أهل وأصدقاء.

لكن، لنعد الآن إلى واقع الحياة؛ فنقول: إن وجدت تلك الفتاة زوجًا ترضاه؛ فسوف تعمل الفتاة وتتزوج وتنجب وتسير بها الحياة.. فأي حقوق اكتسبت؟

إنها تقوم في صباح كل يوم لتحمل أطفالها إلى الحضانة، أو تتركهم مع الخادمة لتسرع بالخروج إلى عملها؛ فنظام العمل لا يرحم ولا يقبل أعذارًا.. تركب المواصلات أو تقود سيارتها وتحتك بجميع أنواع البشر، وتتعرض لتحرشات جسدية ومعنوية لا تنتهي لتصل إلى عملها.

ماذا عن عملها؟ في أحيان كثيرة.. يكون للمرأة صداقات في عملها، تصبح منفذًا لها تخفف عنها الأعباء النفسية. فنجد العاملات تتحدثن عن مشاكلهن الزوجية والحياتية وتتبادلن النصائح والأفكار. لكن هناك أيضًا التعامل مع باقي الزملاء والمنافسة في العمل وطاعة الرئيس حتى لو كان على خطأ، وتقبل تصرفاته السيئة وظلمه في أحيان أخرى. والغريب أن المرأة تجد من الطبيعي أن تطيع الرجل عندما يكون رئيسها في العمل ولا تقبل أن تطيعه عندما يكون زوجها.

تعود المرأة من عملها وهي في عجلة من أمرها تمر لأخذ أطفالها من الحضانة، أو تلقاهم في المنزل منتظرينها على أحر من الجمر، راغبين في الاهتمام والتدليل. ولكن كيف لها أن تقوم بهذا وهي في شدة الإرهاق من العمل ومن المواصلات ومن ازدحام الطرق؟! كما أن عليها أن تعد الغداء

وترتب المنزل، وتشتري الطلبات، التي توقف الزوج عن شرائها لأنها تقضي يومها في الخارج أصلًا، فلتحضر الطلبات بالمرة. بالإضافة إلى كل الواجبات العائلية من زيارة أهلها وأهل زوجها، وأخذ أطفالها للطبيب، والاتصال بالأقارب وعيادة المرضى، والقيام بالمجاملات الاجتماعية.

ويكبر أولادها ويلتحقون بالمدارس فيكون عليها متابعة دروسهم واصطحابهم للأنشطة من تمرينات ودروس. وفوق هذا كله، يتهمها زوجها بإهمال البيت والتقصير في حقوقه، فهي تبدو متوترة وعصبية ومرهقة طول الوقت ولا يجد منها الاهتمام الكافي.. ولا يلتمس لها عذرًا.

لكن الحمد لله فلديها دخل وهي ليست في حاجة أن تطلب منه المال فيعطي أو يمنع؛ بإمكانها الآن أن تشتري ما تحتاجه.

وهنا نكون أمام نوعين من الأزواج؛ زوج يرى أنه مالها فلتنفقه كما تريد والحمد لله أنها رفعت عنه بعض الأعباء؛ فهي تنفق على ملابسها وعلى ملابس أطفالها وتدفع لهم ثمن الأنشطة التي يلتحقون بها والتي لا يرى داعيًا لها وتشتري سيارتها وتصلحها، وتدفع مقابل الخادمة، وتدفع مقابل كثير من الاجتماعيات التي ترتبت على معرفتها بزملائها في العمل. وهي تشعر في دخيلة نفسها أنها مثله وبالتالي فكرامتها لا تسمح لها أن تطلب منه مالًا؛ ومادام بإمكانها أن تنفق فلتنفق. كما أن خروجها من المنزل وصلاتها بزميلاتها في العمل يعرضها لكثير من الإغراءات وينتهي الأمر بأن تنفق راتبها كله كل شهر.

النوع الآخر من الأزواج يرى أن دخل زوجته حق له. وهذا ليس فقط في الطبقات الفقيرة كما يتصور بعض الناس. من المؤكد أن الزوج في الطبقات الفقيرة يعتبر كل ما تجلبه زوجته من مال حقًّا مطلقًا له. وغالبًا ما يدفعها إلى العمل لتعيله هو وأطفاله. ومازال كثير من الأسر الفقيرة تعولها امرأة.

لكن الجديد أننا أصبحنا نرى هذا على نطاق واسع في الأسر المتوسطة بل الغنية. فالرجل يستبيح مال زوجته، وحتى الرجل المتدين الملتزم يجد منفذًا في دينه يسمح له بأخذ مال زوجته.. فبما أنها تعمل، فهي تقتص من حقه في وقتها، ومن اهتمامها بشؤونه وشؤون أولاده، فمن الطبيعي أن تدفع من العائد الذي تحصل عليه من عملها لبيتها، بل لزوجها أيضًا.

وتبدأ المشاحنات المالية الأسرية، ويصبح المال موضوعًا للحديث اليومي: «أنا دفعت كذا.. أنت لم تدفع كذا، هذا التزام عليك..، لسنا في حاجة إليه..، إنه مالي.. إنه مال الأسرة... إلخ. ويظهر على السطح أسوء ما في نفوس وصفات الزوجين.

وكثيرا ما يشارك أهل الزوجة العاملة في حمل الأعباء؛ فمن الصعب على الأم أن ترى ابنتها مجهدة في عملها؛ فتتولى الجدة رعاية الأطفال، وتقوم بكثير من شؤون المنزل بدلًا من ابنتها؛ فيشتد التداخل بين حياة الأجداد والأبناء، وتتدخل الأمهات في حياة بناتهن وأبنائهن.. ولم لا؟! إنها تحمل معهم العبء، فمن حقها أن تدلي بدلوها في نظام الحياة، بل وأن تفرض رأيها، وتقرر نظام البيت وتربية الأبناء.

وهذا الزوج الشاب الذي تقبل من البداية فكرة مساواة زوجته له، يقول: إنها قادرة على القيام بكل شيء مادامت مساوية له؛ فأصبحت تقف مع العمال أثناء إصلاحات المنزل، وتنهي الإجراءات في المكاتب الحكومية، وتشتري طلبات المنزل وتحملها... أليست مثله؟! فقد الرجل شهامته وأصبح قاسيًا، كما أنه فقد الكثير من رجولته على الطريق؛ وأصبح غير قادر على أن يتخذ القرارات الخاصة ببيته وأولاده؛ فهي تنفق كما ينفق، وتعمل كما يعمل، فليس له أن يفرض رأيه عليها.

كما أن نظام العمل الحديث الذي يقضي بموجبه الرجل جُلَّ وقته في العمل ولا يعود قبل السادسة مساء؛ جعله يشعر أنه يقوم بكل ما عليه من التزامات، وأن من حقه بعد ذلك أن يرتاح، وأن يجد زوجة ترعاه وتعتني به بعد عودته من عمله، لكنه في الوقت نفسه يعيش على مستوى مادي يسعده، والكماليات المادية موجودة، فأصبح من الصعب عليه أن يتنازل عن عمل زوجته الذي وفر له كل هذه الكماليات. والحياة صعبة ومتطلباتها كثيرة، كما أن بقاءها في المنزل دون عمل سيحمله أعباء معنوية هو في غنى عنها.

والفتاة التي عملت وحققت نجاحًا في عملها أصبح من الصعب عليها أن تترك عملها؛ فهي لم تعرف غيره، وتخشى البقاء في المنزل عاطلة لأنها لم تعتد الجلوس وانتظار عودة الزوج. كما أنها اعتادت أن يكون لديها مالها الخاص تنفقه أنى شاءت. لذلك من الصعب أن تعتاد من جديد أن تطلب من زوجها أن ينفق عليها، وأن تعود إليه كلما احتاجت شيئًا. كما أنها وفرت لأولادها مستوى عاليًا من المعيشة أصبح من الصعب أن

تحرمهم منه؛ فقد أدخلتهم مدارس مرتفعة المصاريف، واعتادت أن تجلب لهم كل ما يرغبون فيه من ملبس ومأكل؛ لذلك من المستحيل أن تستغني عن راتبها فهي تزداد حاجة له يومًا بعد يوم.

إن المشكلة ليست في عمل المرأة أو عدم عملها، لكن في النظرة إلى مساواة المرأة بالرجل، في العمل والتعامل الخارجي والقيام بأعباء الأسرة، واعتبار هذه المساواة حقًّا ومكسبًا للمرأة لا يمكننا مناقشته. إنه ليس مكسبًا ولا حقًّا، إنه عبء زائد تحملته المرأة ولها الحق في اختيار أن تواصل تحمله أو تتوقف وتقوم بدور الزوجة والأم فقط.

لقد أصبحنا ننظر إلى دور الزوجة والأم بمنتهى السلبية، ونعتبره إهانة أن يقتصر دورها على أن تكون زوجة وأمًّا فقط؛ رغم أن دول العالم المتقدم توصلت الآن إلى أن هذا الدور هو أكثر الأدوار أهمية في حياة الأمم، وأنه عبء لا يمكن للرجل أن يقوم به. فلماذا نريد للمرأة أن تكون رجلًا وامرأة في الوقت نفسه وننام قريري العين أننا استخلصنا لها حقوقها.

لماذا نعتبر أن إنفاق الرجل على زوجته إهانة لها؟ إن دور المرأة كزوجة وأم هو تكريم، ودور الرجل كزوج قائم بشؤون زوجته تكريم له. فلنعد للرجل رجولته وللمرأة أنوثتها.

أنا لا أرفض أن تعمل المرأة إذا أرادت، أو أن تختار أن تكون امرأة عاملة بدلًا من زوجة، لكني أرفض ربط عمل المرأة بالتقدم، أرفض أن تكون المرأة رجلًا وامرأة في الوقت نفسه فهذا ظلم كبير لها، ولا نقول:

إنه خطأ المجتمع الذي لم يوفر للمرأة العون لتعمل وتستريح من أعباء الأسرة ومسؤولياتها بتوفير الحضانات المرتفعة المستوى، والمربيين الخبراء، وتوفير التسهيلات من مواصلات ومستلزمات الحياة؛ لأنه مهما بلغت التسهيلات فلا شيء يعوض عن دور الأم والزوجة؛ إنها مهمة صعبة ودور لا يمكن لأحد أن يقوم به إلا الأم. فلنحترم ربة المنزل فلقد قدرها سبحانه وتعالى وجعل لها أجر المجاهد في سبيل الله.

* * *

١٠ ـ التسميم

لم أجد في تراثنا اسمًا ينطبق على ما يحدث أكثر من هذا الاسم. من المفروض أننا نتزوج لنكون أسرة سعيدة ومرتاحة قدر الإمكان، ويحاول كل من الزوجين، قدر استطاعته، أن يجعل حياة الطرف الآخر أكثر سهولة.

يبدو أن ما يحدث هو العكس تمامًا؛ كما لو أن أحد الزوجين يزعجه أن يرى الطرف الآخر سعيدًا أو مرتاحًا. فيبدأ في توجيه التعليقات والتوجيهات واللوم، فيكون ذلك كالسم، يحول فرح الطرف الآخر وسكينته إلى مرارة وكراهية للحياة.

تعود الزوجة من زيارة أهلها، وتدخل البيت منشرحة.. لتفاجأ بزوجها يقول لها: «لم أجد قميصي الأبيض؛ لو لم تنشغلي مع أصدقائك لانتبهت لغسل القميص..!».

أو يعود الزوج من زيارة أمه، ويجلس ليتحدث مع زوجته بعض الوقت، فتختار هي الحديث عن حادث أو سوء تفاهم وقع بينها وبين حماتها منذ زمن، وتأخذ في لومه لأنه لم يقف في صفها في ذلك اليوم، وكان المفروض أن يراجع أمه ويكشف لها خطأها.

أو يعود أحدهما من لقاء أصدقائه فيبادره الطرف الآخر منتقدًا أحد هؤلاء الأصدقاء، أو يتهمه بأنه لا يحسن الحكم على الناس، أو أنه يثق في الناس أكثر من اللازم.

يعود الزوج من عمله سعيدًا أنه أنجز أمرًا ما، ويقص على زوجته ما حدث، فتبادره قائلة إنه مهما كان ماهرًا في عمله، إلا أنه بالتأكيد لا يعرف كيف يكون أبًا صالحا، يهتم بأبنائه وبشؤونهم.

تعد الزوجة وجبة طعام تعلمتها حديثًا، وتقدمها لأسرتها وهي سعيدة؛ فيعلق زوجها: «ليتك تعلمت كيف تكونين زوجة صالحة وتسعدين زوجك».

يجلس الزوج ليشاهد مباراة كرة على التلفاز فتمر به زوجته مذكرة إياه بما عليهم من التزامات وواجبات.

يرى الزوج زوجته تشاهد مسلسلًا فيبادر بإعطائها محاضرة في أنها يجب ألا تضيع وقتها في مشاهدة هذه التفاهات، ومن الأفضل لها أن تشاهد برنامجًا ثقافيًّا، أو تقرأ كتابًا مفيدًا.

يجلب الأب لأولاده لعبة فتنطلق الأم مؤنبة إياه لأنه ينفق المال على تفاهات، وأن الأولاد لا تنقصهم الألعاب، وكان الأفضل أن ينفقوا المال على شيء مفيد.

تصحب الأم الأطفال لقضاء يوم في النادي وعندما تعود يشرح لها زوجها أنها تفسد الأطفال ولا ترفض لهم طلبًا، وأن الأطفال هكذا لن يتعلموا تحمل المسؤولية طول حياتهم.

وهكذا.. وهكذا.. مع كل موقف صغير في الحياة العائلية يسارع أحد الطرفين بتنغيص حياة الطرف الآخر، ولو نبهته أنه يفعل هذا.. يرد أنه يعبر عن رأيه فقط ولا يفرض شيئًا.

نعم إنه لا يفرض شيئًا ولكنه يطفئ فرحة شريكه، ينغص عليه حياته؛ فيجعله لا يتصرف أبدًا براحته. إنه مثل ذلك الفأر في معمل الأبحاث الذي تصيبه شحنة كهربائية خفيفة كلما اقترب من الباب، فبعد سلسلة محاولات يتوقف عن محاولة الاقتراب أصلًا.

من حق كلٍّ من الزوجين أن يعبر عما يجيش في صدره، وأن يبين ما يزعجه، لكن عليه أن يحسن اختيار الوقت ولا يكون كمن يقتنص لحظات فرح الطرف الآخر ليعبر عن ضيقه. إذا دخل الفرح المنزل بأي شكل من الأشكال فلنبعد النكد ولو لبعض الوقت؛ إن أوقات الفرح ليست بهذه الكثرة حتى نقضي عليها في مهدها.

أفكر كثيرًا في السبب الذي يدفع أحد الزوجين للتصرف على هذا النحو؛ هل هي الغيرة أن زوجه وجد السعادة في مكان آخر.. وأنه قد يستغني عنه، أو ضيقه من أن زوجه وجه اهتمامه لشخص آخر؟ وهناك سبب خفي ألاحظه دائمًا في مجتمعنا: إننا بطبيعتنا نخشى الفرح، إننا نشعر أن مقدار الفرح الذي نحصل عليه يمنحنا مقابله قدرًا متساويًا من التعاسة والحزن. فنبادر بالقضاء على الفرح في أوله، محاولين تجنب الحزن. وأحيانًا نخشى أن نحسد أنفسنا على أننا نعيش بسعادة فنبادر بقلبها إلى نكد حتى نحمي أنفسنا من الحزن.

إننا جميعًا في حاجة للحظات فرح وترفيه حتى نتمكن من مواصلة الحياة وتحمل أعبائها. لا يهم نوع الترفيه الذي نحصل عليه مادام غير ضار. إن مشاهدة مسلسل أو مباراة كرة لن تفسد الحياة؛ وليس هذا وقت النصح.

إننا نعشق توجيه النصح ولا نتوقف عن تكراره، ناسين أنه حتى الأطفال يملون التكرار، فما بالك بالإنسان البالغ العاقل. لا يجوز للزوجة أن تقوم بدور المؤدب فتؤنب زوجها على خروجه مع أصدقائه أو مشاهدته للتلفاز، أو تنصحه أن يستفيد من وقته في عمل مفيد أو عبادة.

ولا يعقل أن يتصور الزوج نفسه قَيِّمًا على عقل زوجته وسلوكها، فلا يتوقف عن توجيهها، كأنه مكلف أن يجعل منها إنسانًا كاملًا، ناسيًا أنه هو نفسه مجرد إنسان عادي.

لابد أن نتذكر دائمًا أننا شخصان بالغان، يمكننا أن نقدر تصرفاتنا. قد نخطئ وقد نحتاج للتذكير، ولكن على الطرف الآخر أن يحسن اختيار الوقت والأسلوب المناسبين.

إذا أراد أحد الزوجين أن يشتكي من تقصير زوجه، فليبدأ بشكره أولًا على أمر ما أحسن القيام به ويثني على مجهوده؛ فيشعر الآخر أنه ليس معرضا لهجوم.. ويتقبل ما يقوله زوجه.

إن تلك التنغيصات والتسميات، التي يسميها الزوج مجرد تعليقات ويدعي أحيانًا أنها مجرد مزاح، هي في الحقيقة سم بطيء، تقتل الحب.. قليلًا قليلًا. ففي البداية قد يتجنب الزوج مثل هذه التعليقات؛ فيحرص أن يخفي على زوجه ما يفعله، فتشاهد الزوجة المسلسل الذي تتابعه عندما

يكون زوجها غير موجود. يدعي الزوج أنه خارج لعمل، ثم يخرج للقاء أصدقائه. عندما يعود من الخارج يحرص ألا يقص أي شيء بل يكون كلامه مقتضبًا عامًّا.

كل هذا حتى لا يعرض نفسه للتأنيب أو لتعليق يزعجه.. وهكذا، ودون أن يشعر الزوجان، يحدث نوع من الانفصال المعنوي تدريجيًّا؛ فيحتفظ كل منهما بأموره لنفسه، ويحاول أن يحصل على أي قدر من الفرح بعيدًا عن شريك حياته الذي يمتلك قدرة بارعة على قتل الفرح.

ولنا أن نتصور تأثير هذا على الأطفال؛ فالأطفال ليسوا أغبياء وسرعان ما يكتشفون أن من الأفضل عدم إطلاع الأب أو الأم على الأمور التي قد تتسبّب في تسميمهم. ويتطور الأمر حتى يصل إلى أن يفضل الأولاد انشغال الأم بعيدًا عنهم، وعدم وجود الأب في البيت أصلًا.

ليت الزوجين يسمحان بفسحة من الفرح في حياتهما، حتى لو لم يقتنع أحدهما بها، مادامت ليست خطأً فادحًا أو حرامًا. أوقات الفرح والسعادة البسيطة في الحياة تساعدنا على أن نعيشها في يسر، وشعور الإنسان بالأمان في فرحه وحزنه ومرضه وصحته هو صمام الأمان في أي حياة زوجية. أذكر أنني قرأت ذات يوم ملحوظة تقول: إن الزوج السعيد هو الذي إذا نال ترقية في عمله يستطيع أن يعود إلى بيته فرحًا يرقص ويدور معلنًا عن سعادته.

إن التسميم المعنوي مثل الوخز بالدبوس، قد نراه شيئًا بسيطًا لا يسبب ألمًا ملحوظًا، إلا أن استمراره يسبب التهابًا. وفي الحقيقة.. لا يستطيع الإنسان أن يقرر قدر الألم الذي يشعر به إنسان آخر.

* * *

١١ ـ آسفة.. لا أصلح زوجة

نقول جميعًا ونعترف أن مهمة الأم أهم مهمة في حياة المرأة، بل هي الأهم بالنسبة للبشر جميعًا. ومع أهمية دور الأم الذي لا يماري فيه أحد، غالبًا ما نغمط دور الزوجة، حتى إن الزوجة التي لا تنجب تشعر أن لا دور لها في الحياة.

تحرص العائلات على تجهيز بناتها بكل متطلبات منزل الزوجية، من مفروشات وأدوات وملابس. إلا أنها تغفل تجهيز بناتها لمهام الزوجة، وهو دور مهم جدًّا بل أساسي في نجاحها كزوجة، وأم بعد ذلك.

لقد تبنى الناس في عصرنا الحالي فكرة المساواة بين الرجل والمرأة، وتشبع تفكيرهم بقصص المآسي الزوجية، وترسخت في معتقداتهم قصص الفشل والطلاق؛ فأصبحوا ممزقين بين شعورين؛ فهم يتمنون أن تتزوج بناتهم، فالزواج ستر وغطاء، وفرحة ينتظرونها منذ يوم مولدهن وفي نفس الوقت يخافون عليهن مما قد تتعرضن له بسبب هذا الزواج، فيمدون ابنتهم بمجموعة من الأسلحة تساهم في حمايتها إذا حم القضاء؛ فهناك قائمة الأثاث، ومؤخر صداق، ودروس في إخفاء مالها وممتلكاتها، ثم محاولة الحصول على أقصى ما يمكنهم من العريس.

يبدأ الأهل الاستعداد لزواج ابنتهم من يوم ولادتها، وفي عقلنا الباطن نربط وجود فتاة في البيت بيوم عرسها، ويظل هذا اليوم يراود الأهل كحلم يحيون من أجله، ويحاولون ادخار المال والسلع (الجهاز) من أجله. لكنهم، من شدة خوفهم عليها، يدربون ابنتهم على وسائل الاستغناء عن الزوج أو الاستقواء عليه لحمايتها منه.

ولأن الدنيا لا أمان لها، يحرصون على أن تحصل ابنتهم على تعليم يوفر لها وظيفة ذات دخل محترم، فلا تحتاج لزوجها. ولا مانع من توفير شقة إضافية للبنت، إذا لم تحتجها لتتزوج فيها، فسوف تنفعها في حالة الطلاق لا قدر الله.

وهكذا يتسرب إلى العقل الباطن لابنتنا أن زوجها سوف يحرمها من المال قطعًا، وأنها لن تتمتع بحياتها معه أبدًا، وأنه سيستغلها بكل تأكيد.. وأنهما سوف ينفصلان في النهاية بلا شك.. هذا إذا لم يتزوج عليها. إننا نجهز ابنتنا وندربها لتخوض حربًا لا لتعيش في سكينة كما هو المفروض من الزواج. وتبدأ المعارك قبل أن ينتقل الزوجان الشابان لمنزلهما، الأهل دائما طرف في المعركة، وهم لا يتصورون أبدًا أثر هذه الحرب على الزوجين الشابين من شعور بالضغينة وفقدان الثقة، وحساب كل شيء بالمال.

مازالت كل فتاة تحلم أن ترتدي ثوب الزفاف الأبيض الذي سيجلب لها معه السعادة، وأن تمتلك بيتًا خاصًّا تتوفر به كل التجهيزات.. وأن هذه الاستعدادات لابد أن ينتج عنها أسرة سعيدة.

تبدأ الفتاة حياتها بأجواء احتفالية مبالغ فيها، متصورة أنها سوف تدوم، رغم أنها عرفت أنها لم تدم لأخواتها ولا لصديقاتها، لكنها متأكدة أن وضعها سيكون مختلفًا.. ستحرص ألا يتصرف زوجها بعصبية مثل أبيها، ولا بأنانية مثل غيره من الرجال، وألا يكون قليل الذوق مثل إخوتها؛ لكنه سيكون ذلك الزوج الرقيق الذي يغمرها بالحب والحنان، كما في الأساطير وقصص الأميرات، وهي قد استعدت بالملابس الجميلة، وبيتها في أبهى صورة، كما أنها في داخلها لديها استعداد رائع لكل أنواع الرومانسية، وستملأ المنزل بالورود والشموع والموسيقى، فهي قد حرصت على وجود الشمعدانات في جهازها. ستكون إنسانة رقيقة لن يرى منها إلا كل جميل، وستغدق عليه تلك العاطفة التي اختزنتها داخلها لسنوات.

وهي متأكدة في نهاية الأمر أنه سيقدر كل ما قدمته وكل ما قدمه أهلها؛ فيصبح لهم نعم الزوج؛ ويصبح جزءًا من أسرتها.

لكن الزواج ليس هكذا، والحياة ليست كذلك.. إن الحياة في أفضل صورها ستكون شبيهة بتلك التي عاشتها في بيت أهلها؛ مع كل ما يصاحبها من مشاكل وعصبية وملل، أضف إلى ذلك أنها أصبحت الآن مسؤولة. أما الزوج، فلو أنه حرص على بعض مظاهر الرومانسية في بداية حياتها، لا يمكنه أن يواصل الحياة بهذه الصورة؛ فهذا مخالف لطبيعته، ويرى فيه سخفًا وإهدارًا للوقت، كما أن الشباب عادة يملون حديث الفتيات فليتزمون الصمت أو يجيبون باقتضاب وجفاء.

وتحاول أن تلين قلبه بإغداق الحب والرومانسية عليه لعله ينتبه إلى حاجتها إليها؛ لكنه يعتبرها زيادة منها وتبرعًا ليس عليه أن يرده.

وسرعان ما يعود الزوج إلى نوع الحياة التي اعتادها قبل زواجه، من عمل وأصدقاء ومشاهدة التلفاز، ولا يرغب في الزيارات والاجتماعيات العائلية التي ترى الزوجة أنها ضرورية.

وتصدم الفتاة وتحس أنها ليس لها مكانة خاصة في حياته، وكأنه قد أتى بخادمة تقوم بأعمال المنزل وامرأة للفراش ومربية لأولاده فيما بعد؛ ويا ليته يقدر أنها تقوم بكل هذه الأدوار.

وتحزن الفتاة، وقد تتمرد، وغالبًا ما تتحول الحياة إلى سلسلة من المشاكل والنكد. وفي أفضل الأحوال تتحمل الفتاة حياتها على أنها نصيبها، فتكتم أساها في قلبها لتستمر الحياة.

وتدور دائرة الحياة، من عمل خارج المنزل وعمل داخل المنزل؛ ولأن الفتاة غير مجهزة لمواجهة هذا النوع من الحياة، فهي تكثر من الشكوى لصديقاتها وأهلها، وتلتمس الاهتمام خارج البيت من صديقاتها، اللاتي تبادر كل منهن بتقديم النصح، ورواية التجارب التي قد لا تتوافق مع ظروفها أو مع طبيعتها أو طبيعة زوجها. وقد تندفع الفتاة عائدة إلى حضن أبويها، ورغم علم الأبوين أن هذا هو المسار الطبيعي، وكل البيوت لا تخلو من المشاكل كما يقولون، إلا أنهم لا يتحملون حزن ابنتهما وألمها، بعد أن عاشا حياتهما كلها من أجلها.

قد يسرع الأبوان الصالحان لمساعدة ابنتهما وحمل الأعباء عنها وعن

زوجها؛ فينظفان المنزل ويصحبانها لقضاء المهام، ويقدمان المال ويتوليان رعاية الأطفال؛ آملين أن يتوفر الوقت والجهد للزوج ليسعد ابنتهما، وليخف العبء عنها فيعود لها إشراقها.. ولا جديد في ذلك، فهما قد حملا عنها العبء دائمًا.

ولا ينتج عن هذا الجهد إلا كل سوء، ورغم أن الأبوين يعرفان أن هذا الجهد لن ينجح، إلا أنهما لا يتوقفان، بل يستمران في الاستماع لشكوى ابنتهما، ويتحملان الجهد والمال في محاولة إسعادها. والنتيجة: زوجة دائمة الشكوى تشعر دائمًا أنها سيئة الحظ تزوجت من زوج متعب، وتتحمل أعباء فوق طاقتها. وزوج شاب يزداد أنانية، ويفقد شهامته نتيجة تدخل أهل الزوجة في حياته. ويزداد التباعد بين الزوجين، يرى الرجل أن الحظ أوقعه في زوجة مدللة، وترى المرأة أنها من دون كل الناس، نالت زوجًا أنانيًّا.

للأسف إن الفتاة في مجتمعنا تتربي على طريقة من اثنتين: إما أن تكون قوية وعدائية، تدخل الحرب بمجرد الزواج لتنال ما تريد، أو ما تراه حقًّا لها، وإما تتربى لتكون منكسرة مستكينة تتقبل قضاء الله في نصيبها، وتظل عمرها تعمل لإرضاء زوجها وأهله وأبنائه.. لعله يرضى.

الزواج مشروع يستلزم لنجاحه كثيرًا من الإعداد والتحضير، لعل أهم شيء يجب الانتباه له أن تُفْطَم الفتاة عن أهلها، فلا تعود إليهم في كل صغيرة وكبيرة، بل أن تحاول أن تفهم زوجها وتتفاهم معه، وتجتهد لاكتشاف الوسائل التي تُسَيِّرُ بها حياتها؛ وأن زوجها ليس نسخة من أبيها

ولا من زوج صديقتها؛ فلكل رجل طباعه واحتياجاته كما لكل امرأة طباعها واحتياجاتها.

أعرف أنه عبء على المرأة أن تقوم بكل هذا، لكن في النهاية هذه وظيفتها في الحياة التي ستحصل بها على أجر من الله سبحانه وتعالى، وهو أجر عظيم لأن مهمتها عظيمة.

قد تكون المرأة أمًّا بفطرتها، لكن الزوجة ليس من وظيفتها أن تربي زوجها، أو تعلمه كيف يأكل ويشرب ويتصرف، إنه ليس ابنها. عليها أن ترعاه لكن مع الحفاظ على كرامته وعلى حقه في أن يتصرف على النحو الذي يراه مناسبًا حتى لو لم يعجبها. ليس المقصود أن يتحول كل زوج إلى صورة من الزوجة وليس المقصود أن يصبح الزوج جزءًا من عائلتها، وأن يرتبط بهم كليًّا.. إن له عائلة هو الآخر، وقد اعتاد وتربى على طرق وتصرفات مختلفة لابد أن تحترمها زوجته.

لا بد أن تجد الزوجة وسيلة، أيًّا كانت، للتفاهم مع زوجها لا لتغييره أو إصلاحه، وأن تختار صديقة أو أكثر لتحدثهن عن مشاعرها وأفكارها وأحلامها. فالرجل لا يتحدث مع زوجته إلا في شؤون الأسرة والأولاد، وباختصارٍ قدر الإمكان، والنساء يحببن الاستفاضة في الحديث عن أي موضوع يطرقنه، بينما الرجال يفضلون الإيجاز والتركيز على ما يهمهم فقط. لذلك على الزوجة أن تعامل زوجها كشريك يختلف عنها وليس كمملوك نفسي وعاطفي ومادي لها ولأولادها وأهلها. لا يمكنها أن تحول ولاءه كله لها، ولا أن تحرمه من حياته واهتماماته مهما رأت أنها سخيفة ومضيعة للوقت والجهد والمال.

عزيزتي الزوجة الشابة.. الإنسان لا يعيش في سعادة دائمة أبدًا، إنما تمر به لحظات سعادة عليه أن يقتنصها ويتمتع بها، الحياة في مجملها واجبات وأعباء، والأوقات تمر طيبة أحيانًا وسيئة أحيانا أخرى، ولا يمكن أن تكون كل الأوقات طيبة مهما حاولنا، فحاولي ألا تزيدي من مقدار الأوقات السيئة بالبحث عن مزيد من المشاكل والتعاسة. لا تلتمسي سعادتك وبهاء حياتك من زوجك فقط، اجعلي لنفسك أصدقاء ونشاطات واهتمامات؛ كي لا تكوني تابعة تعيسة؛ لا تسعد إلا لو أسعدها زوجها.

للأسف إننا نجد الإعلام لا يقدم الزوج إلا بصورة من اثنتين فقط؛ إما أن يكون مجرما يستحل مال زوجته وجهدها ثم يتزوج عليها، أو زوجًا متفهمًا بشكل غير طبيعي وغير حقيقي، يقوم عن زوجته بكل أعباء الحياة. ثم يجد، بعد ذلك، الوقت والجهد ليستمع إلى أفكارها، ويناقشها مشاكلها، وييسر لها القيام بما ترغب فيه مهما كان تافهًا، ويجعل اهتماماتها مقدمة على باقي اهتمامات الأسرة.

وهكذا تعيش الزوجة خائفة أو متربصة، تنتظر اللحظة التي سيؤذيها فيها زوجها بأخذ مالها أو شقتها، أو بالزواج عليها؛ فتعيش في حرب مستمرة على كل صغيرة وكبيرة، خوفًا من المجهول.. فيتحول البيت إلى ساحة قتال لا ينتهي. أو تعيش منكسرة حزينة تبحث عن الحب في الأفلام، وتفقد كل اهتمام بزوجها وأطفالها لأنها تعيسة، ويتحول البيت إلى مكان كئيب لا يرغب أحد في العودة إليه، وتتحول مهام الحياة الزوجية كلها إلى عبء يؤديه كلاهما مكرهًا، ويمضيان الوقت يندبان حظهما، وينوحان على اليوم الذي تزوجا فيه، ويتذكران كيف كانت حياتهما في بيت أهلهما سعيدة وهنية، ويرددان أن الزواج هو أكبر خطأ يرتكبه الإنسان.

* * *

١٢ ـ حائط سد

هاتان صورتان تقريبيتان لتوضيح ما يفعله كثيرون منا:

• تعاني الزوجة أن زوجها قليل الكلام، لا يتفاهم، ليس اجتماعيًّا ولا يزور أهلها معها... فتمضي عمرها محاولة أن تقنعه أن هذا خطأ، وأنه لابد أن يتغير. والنتيجة.. أن تتحول حياتهما إلى تعاسة متصلة؛ فهو لن يتغير، وإذا حاول أحيانًا أن يرضيها، فسوف تتغلب عليه فطرته ويعود إلى طبيعته بعد حين.

• يحاول الرجل أن يغير من طبيعة زوجته، ويظل يحاول، وتحاول هي معه، آملة أن ترضيه.. وينتهي بها الأمر صورة مشوهة لما يريده، ومسخًا لما كانت عليه. فلا يرضى عنها ولا ترضى عن نفسها ولا تعجب من حولها.. وفي النهاية يظل ما كان يريد الزوج تغييره ثابتًا لم يتغير.

الإنسان غالبًا لا يتغير، وإذا حاول وضغط على نفسه وهو شاب، فسرعان ما يغلبه طبعه ويعود لعاداته.

لا أقصد هنا أن الإنسان لا يتطور، أو لا يكتسب عادات جديدة، فنحن نتعلم ونتطور كل يوم، وإن كنا نختلف في مقدار ذلك التغير

من شخص إلى آخر، وعادة ما يكون التغير طفيفًا في الطباع الأصلية. كأن يكون الشخص حذرا أو قليل الكلام، بخيلًا أو مسرفًا، قلقًا أو بارد الأعصاب... فهذه من الطباع التي يمكن تحسينها قليلًا، ولكن لا يمكن التخلص منها نهائيًّا، كما لا يمكن للشخص أن يتحول إلى عكسها؛ فالعصبي لن يصبح هادئًا بارد الأعصاب، والبخيل لن يصبح كريمًا، والحذر المنعزل لن يصبح اجتماعيًّا مهما حاولنا ومهما حاول هو معنا.. قد تقل حدة عيوبه ولكنه لن يتخلص منها أو يتحول إلى عكسها.

ويظل الزوج يشتكي ويشتكي، آملًا أن يستجيب زوجه لإلحاحه ويتغير. وعندما لا ينجح في إلحاحه، يظل يندب حظه الذي كتب عليه تلك العيشة المريرة التعيسة.

المشكلة أننا نصر أن راحتنا وسعادتنا لن تكون إلا بتغيير الطرف الآخر، وأن الوسيلة الوحيدة للوصول إلى السعادة هي هذا التغيير.. فنواصل الدق على حائط العناد محاولين إزاحته، لكنه حائط لا يتحرك، ولا تتغير الأمور، وكلما زاد دقنا على هذا الحائط تعبنا وازدادت تعاستنا، وبقي الحائط قائمًا كما هو.

يصر الإنسان على أن يزيح هذا الحائط، بينما لو نظر حوله لوجد بابًا أو نافذة. إن الإنسان لا يرى إلا طريقًا واحدا لراحته، ويرفض أن يرتاح بأي طريقة غيرها. لكن الحياة المشتركة مع شخص آخر تحتاج إلى المرونة وإلى الوصول للحلول الوسط طول الوقت تحتاج أن نتنازل قليلًا، وأن نتقبل الأفكار والطرق الجديدة التي تجعلنا نستمر في الحياة. إن طريقة

عيشنا ليست مقدسة، وليس من العيب أو الحرام أن نغيرها. بل الواجب أن نبحث دومًا عن طريق مغايرة لما اعتدناه للوصول إلى أهدافنا. فإذا لم نستطع الدخول من الباب فلندخل من النافذة؛ الهدف هو المهم وليست الوسيلة، مادامت حلالًا. والحياة تحتاج إلى مهارة عالية لنخوضها.

يعتقد الإنسان أن تغير ظروفه الخارجية سيجعله سعيدًا. فتتصور الزوجة مثلًا أنها سترتاح إذا تفاهمت مع زوجها أو كان ممتنًّا لما تقوم به.. إذا أصبح أقل عصبية أو أكثر كرمًا أو أصبح منظمًا.. إذا أصبح أطفالها مطيعين أو بيتها واسعًا... وهكذا.

يتصور الناس أن تغير الظروف سيحل كل المشاكل. لكن الإنسان عادة لا يستطيع السيطرة على ظروفه الخارجية، ولا يمكنه تغيير الآخرين.. لذلك، لابد أن يفكر بطريقة مختلفة لحل مشاكله.. أن يحاول التحكم فيما يمكنه التحكم فيه؛ وهو طريقة تعامله مع الناس والظروف، وتقبله للأشياء والأوضاع.

لو كان الزوج عصبيًّا، فلنبحث عن طريقة حديث لا تثير عصبيته. لكن ما يحدث أن الزوجة تكون متأكدة أن زوجها عصبي ويثور لأتفه الأسباب، لكنها تعتبره مخطئًا في عصبيته فتصر أن تكرر عليه الموضوع نفسه الذي يغضبه، وتكلمه بالطريقة نفسها التي تثيره.. ثم تبكي وتغضب لأنه عصبي ويثور لأتفه الأسباب.. فلا هي تتوقف عن إثارة غضبه، ولا هو يتوقف عن عصبيته.. مما يهدد البيت والحياة كلها بالدمار.

قد تكون الزوجة لا تحب استضافة الناس، فيتصور زوجها أن الحياة

ستصبح أجمل وأمتع لو تغيرت زوجته وصارت أكثر انفتاحًا على الناس.. لكنها في الواقع لن تتغير.. إذن، على الزوج أن يبحث عن وسيلة أخرى لإسعاد نفسه، وسيلة لا تعتمد أصلًا على زوجته الرافضة للتغير. وقد يفرض الزوج على زوجته أن تمضي أمسياتها أمام التلفاز، تشاهد برامج لا تعجبها؛ فبدلًا من الضيق أو الشعور بالقهر والتعاسة، يمكنها أن تنشغل بقراءة كتاب، أو بالأشغال اليدوية، أو إنجاز بعض الالتزامات المنزلية التي يوفر لها وقتًا آخر تمضيه في عمل أو مشاهدة ما تحب.

أذكر أنني قلت ذات مرة لإحدى الأمهات: لو كان لي اختيار ما أعلمه لابنتي قبل أي شيء آخر، لاخترت أن أعلمها كيف تتسلى وتشغل وقتها لو اضطرتها ظروفها يومًا أن تعيش مسجونة.

مشكلتنا أننا لا نرى حلًّا لمشاكلنا إلا في تغيير من حولنا بدلًا من تغيير أنفسنا، فنمضي عمرنا نربي أزواجنا ونعلمهم كيف يتصرفون، ونفرض عليهم ما نراه خيرًا لهم، ونقرر ما الذي يسعدهم. ونقوم بالشيء نفسه مع أبنائنا، حتى بعد أن يكبروا؛ لأننا نعتبر أن الحب يعني الاهتمام، وأن الاهتمام يعني أن نسوق من حولنا إلى جادة الصواب. بينما الحب في الحقيقة هو أن نسمح لمن حولنا ـ كالزوج والأبناء ـ أن يكون على طبيعته.

الأم التي لا تتوقف عن نصح أبنائها، وقد بلغوا سن الرشد، بأن يتناولوا طعامًا صحيًّا، وينتبهوا للجو البارد، وألا يسهروا طول الليل ولا يتأخروا في الاستيقاظ تدق على حائط سد؛ فقد قالت هذا الكلام مئات المرات ولا شيء يتغير، وتظل تندب حظها على الأولاد الذين لا يسمعون النصيحة، ولا يعرفون مصلحتهم، ويبادرون بالفرار كلما تحدثت معهم.

ولا تنتبه أبدًا أنها لن تصل إلى نتيجة، وكل ما يحدث أن زوجها وأولادها ينفرون؛ من كثرة ما سمعوا هذا الكلام، ويريدون أن يعيشوا حياتهم بطريقتهم.

أبسط مبادئ النجاح في الحياة، وفي أي أمر آخر، أنه عندما تفشل طريقة ما، لا تعاود استخدامها، بل ابحث عن غيرها. إذا كان هذا الباب موصدًا فلا تضيع وقتك بالدق عليه، ابحث عن غيره.

تفرض الحياة علينا ظروفًا لا حيلة لنا فيها، بل تسجننا في هذه الظروف، فكيف نعالج هذا الوضع؟ من الرائع أحيانًا أن نحارب الظروف. لكن التغلب عليها وتطويعها بمهارة وذكاء يكون عادة أكثر حكمة من الحرب.. وكلما انتصرت علينا الظروف بحثنا عما ينفعنا منها.

الأيدي المضرجة بالدماء، التي تدق الأبواب حتى تنفتح، تكون في تحرير الأوطان، لكن حياتنا الأسرية ليست معركة، إنها تحتاج إلى وسائل أخرى مختلفة تمامًا، تحتاج أن نستخدم فيها كل ما نملكه من حكمة ورقة ومهارة حتى تسير حياتنا بيسر، وحتى نقوم بمسؤولياتنا، وتهون مشاكلنا وتقل نزاعاتنا.

لكل إنسان مفتاح شخصية، إذا اكتشفناه نستطيع استخدامه لنتفاهم معه، المهم أن نميز المفتاح الصحيح. أذكر زوجة اعتاد زوجها أن يعارضها في كل ما تقول؛ حتى إنها كانت تقول: «لو أخبرته أن الشمس تشرق من الشرق لأجابني، لكنها سوف تشرق من الغرب في يوم القيامة!!» فلما عرفت مفتاح شخصيته، كانت إذا رغبت في شيء اقترحت عليه عكسه،

فإذا رأت أن عليهم زيارة أحد معارفهم، أبدت تذمرها منهم فيصمم هو على أداء الزيارة، وهكذا تمكنت في أحوال كثيرة أن تحصل على ما تريد.

يرى بعض الأزواج أنها طريقة مجهدة وأسلوب حياة مهين.. ويعللون ذلك بالقول: «ولماذا أقوم بالعبء كله، ولا يكلف الآخر نفسه بأي جهد؟». والرد على ذلك أن الحياة في حد ذاتها عبء، تتطلب مجهودًا دائمًا، فلماذا لا نبذل هذا القدر من الجهد لنجعلها أكثر يسرًا.. نستطيع التأثير على البعض بأن نثير شهامتهم، وعلى آخرين بأن نمدحهم.. المهم أن نعرف المفتاح لتسهيل حياتنا.

بعض الناس تعتبر الطريقة مهينة جدًّا، فما الذي يجبر شخصًا عاقلًا على القيام بكل هذه الألاعيب للحصول على بعض السهولة في الحياة. الحقيقة أن هذا الأمر لا علاقة له بالكرامة، ولا يمثل إهانة بأي شكل. بل إني أراه أقصى درجات الذكاء، فأنا أستخدم قدرتي وذكائي لأحصل من الطرف الآخر على حقي، وهو راضٍ مطمئن، بدلا من صراخ وشجار وفقدان الحق. لماذا لا نستخدم المجاملة والمديح لتيسير الحياة.

الحياة الزوجية تتطلب مهارة ومرونة، وكلما أجدنا ذلك قل الهم والنكد في بيوتنا.

* * *

١٣ ـ الرضا

أعتقد أن الرضا هو مفتاح السعادة الذي دأب البشر على البحث عنه، فلا أمل للإنسان في السعادة إلا بأن يرضى.

كثيرون يعتبرون الرضا تصرفًا سلبيًّا، واستسلامًا، وقبولًا لما لا يجوز أن يتقبلوه؛ وقبولًا للظلم الذي نالهم والحرمان الذي أصابهم. ورغم ترديدنا لمقولة أن «القناعة كنز لا يفنى»، إلا أننا نرفض دائمًا كل ما يحدث لنا، ولا نتقبل أبدًا أي حدث يصيبنا.

هناك خلط بين الرضا والزهد، لذلك نعتبر الرضا شكلا من أشكال التدين، لكن الرضا له جانبان:

الجانب الأول: أن ترضى بقضاء الله، فلو حرمك الله الأطفال وبذلت وسعك، من مراجعة الأطباء والأخذ بالأسباب، ولم يشأ الله أن يمنحك طفلًا فلا داعي لقضاء عمرك متصورًا أنك لو كان لديك طفل لتمت سعادتك؛ لأنها مشيئة الله أن يمنح الإنسان ذكورًا أو إناثًا أو يحرمه، فهي إرادته ولا راد لقضائه، كما أن فكرة السعادة التامة فكرة فلسفية لا أساس لها على أرض الواقع، فليس هناك من يعيش سعادة تامة دائمة حتى لو

توفر له المال والأولاد، ونحن لا نعرف لماذا حرمنا ربنا سبحانه وتعالى من الذرية، ولا بماذا عوضنا مقابل ذلك، أو ماذا رفع عنا من مصائب وآلام؛ ولذلك فالرضا بقضاء الله مع الثقة والإيمان أن الله سبحانه وتعالى لن يمنحنا إلا كل الخير سيمنحنا شعورًا بالأمان، وبأننا لسنا أقل حظًّا ولا أكثر حرمانًا من غيرنا، فهو سبحانه وتعالى يوزع رزقه وقضاءه كيف يشاء، ولا يظلم أحدًا.

الجانب الثاني للرضا: مقصود به القبول، وهو ما يراه الناس تصرفًا سلبيًّا، وأراه أنا تصرفًا إيجابيًّا تمامًا. إنه يعني العثور على الجانب المشرق في كل ما يحدث لك أو يصيبك في حياتك. ففي الحياة الزوجية عندما أضيق من تصرفات زوجي، أذكر نفسي بمميزاته، وأحاول أن أجد له عذرًا في تصرفه.. وذلك ليس من منطلق الخوف أو التنازل أو الضعف، إنما لأهون عن نفسي وأخرج من دائرة الضيق والغيظ. إذا أرهقتني تربية أطفالي أنظر إلى ما حققت من إنجازات، وإذا تعبت في عملي ولم يقدرني رؤسائي أذكر نفسي بأن الأهم أنني قمت بعملي على أكمل وجه. إذا أزعجني أمر في البيت، كأن يكون ضيقًا مثلًا، أحاول أن أرتبه بشكل يريحني، وأذكر نفسي أن الإنسان هو الذي يمنح المكان قيمته.

والعجلة من أسباب عدم الرضا؛ فأنا أريد هذا الشيء، وأريده اليوم، وأعتبر عدم حصولي على ما أريد في الوقت الذي أريده مدعاة للتعاسة. ومن أشهر الأمثال على ذلك؛ الشاب الذي يرغب في الحصول على المال في شبابه ليتمتع به ويقتني ما يشتهي ويسافر حيث يريد، مع أنه الآن في مقتبل حياته وكامل صحته، ويستطيع أن يعمل ويجتهد ويتمتع بحياته

ويكتسب خبرات كثيرة.. وقد يكون من الأفضل له أن يحصل على المال والراحة والرفاهية وهو أكبر سنًّا، عندما يكون في حاجة إلى الرفاهية وأكثر استحقاقًا لها.

إن كل ما نقابله أو نتعرض له في حياتنا هو من عند الله؛ فإذا تقبلنا ونظرنا فيه، لرأينا الخير الموجود فيه وتوقفنا عن الرثاء لأنفسنا ومحاربة الآخرين؛ فالإنسان الذي يحارب البشر والظروف، راغبًا أن يغيرهما لما يعتقد أن فيه سعادته وراحته يعيش في كبد طول العمر؛ فالحرب تستنفد طاقة الإنسان، وتحرمه من رؤية النعم التي تحيط به، فينشغل عنها بمحاولة تغيير كل ما لا يعجبه، وقد يكون التغيير خارجًا عن إرادته، وقد لا يكون من حقه التغيير أصلًا، مثل الزوجة التي تحرص على تغيير أهل زوجها؛ أي تبدل طباعهم أو سلوكهم وتصرفاتهم، لأنها تراها خاطئة أو غير ملائمة، أو تخشى تأثيرهم على زوجها وأولادها، وهذا أمر في غاية الغرابة، فلو أن أهل زوجها سيؤثرون عليه، فلابد أنه قد تأثر من قبل وانتهى الأمر.. فقد عاش معهم حياته من قبل، وهي قبلته زوجًا على هذه الحال، أما بالنسبة للأبناء، فلو أنها انشغلت بتربيتهم وتوطيد صلتها بهم وتقديم العذر للأهل على سوء تصرفهم وحافظت على احترام أبنائها لهم حتى لو كانوا مختلفين، لحققت ما تريد من تربية أطفالها على المبادئ السليمة دون أن تستنزف طاقاتها في حروب وجدالات.

مما يساعد على قبول الإنسان لما يحدث له والرضا بما عنده؛ الإيمان بأن للبشر جميعًا الحقوق نفسها، وأنه ليس هناك إنسان أفضل من غيره؛ وما يفرق بين إنسان وآخر من ظروف كان الله سبحانه وتعالى قادرًا على أن

يبدلها؛ فيضعني مكان الخادمة التي تنظف منزلي، ويضعها مكاني، فليست مهارتي التي أوجدتني في هذا الوضع، كل ما في الأمر أنني ولدت لوالدين جنباني هذا الوضع، ولكن كل هذا قد يتغير من لحظة لأخرى، وأجد نفسي أنظف المنازل؛ فلنرحم بعضنا ونلتمس لبعضنا العذر.

* * *

١٤ ـ أطفئ النار

غريب أمر هذا الإنسان؛ يتزوج، ويعيش الزوجان معا في بيت واحد، وتدب بينهما الخلافات والمشاحنات، وتعلو الأصوات، ويغضب كل منهما من الآخر، ولكن هذا الشجار غالبًا ما يأخذ صورة واحدة في الأسرة الواحدة، فالتصرفات تتكرر في كل مرة، وكذلك الكلمات، والنتيجة الدائمة أن الشجار يتصاعد ويدفع الزوجين لقول ما يندمان عليه بعد ذلك.

المشاكل الزوجية قائمة ما دام الزواج، حتى في البلاد التي يعيش فيها الرجل والمرأة دون زواج، تحدث بينهما الخلافات نفسها، ليس بسبب المسؤوليات المتبادلة، لكن التقارب والصلة الحميمة تولدان شرارة الخلاف مثل شرارة التماس؛ فالتقارب الشديد يجعل الإنسان يعرف ويلاحظ كل صغيرة وكبيرة في شريك حياته، ويتابعه بعقله وبصره. فالإنسان يضيق أحيانًا أو يختلف مع والديه وإخوته وأهله المقربين، بل يضيق أحيانًا من نفسه، فما بالك بذلك الإنسان القادم من أسرة مختلفة، لها أفكارها وعاداتها وتقاليدها. إننا نكاد لا نجد شخصين يحبان الأشياء نفسها، ويتبنيان الآراء نفسها، ويتمتعان بالطريقة نفسها، ويكرهان الأشياء نفسها، حتى

الأصدقاء الذين تصادقوا للتشابه الشديد بينهم يحدث بينهم خلاف. فما بالك برجل وامرأة، طبيعتهما مختلفة أساسًا، يطلب كل منهما من الآخر أن يطابقه، بل يعتبره مسؤولًا عن سعادته وشقائه.

لا مفر إذن من حدوث الخلافات، وعادة ما يبدأ الخلاف بكلمة أو تعليق أو تصرف يثير ثائرة الطرف الآخر، وغالبًا تكون ثورته أكبر مما يتوقع الطرف الذي بدأ التصرف أو التعليق، فينبري للدفاع عن نفسه ورد الهجوم، فيرد الطرف الآخر مدافعًا عن وجهة نظره، وتتفاقم الأمور وتعلو الأصوات، ويصر كل منهما على إثبات أنه على حق. وتعود المرأة لتكرر كل ما أزعجها منه على مدى السنين، ويتبرم الرجل من تلك المرأة النكدة، ويخطئ كل منهما في تعبيراته وكلامه، وقد يصل الأمر أحيانًا للتشابك بالأيدي.

يحدث هذا في بيوتنا كل يوم، وفي كل الزيجات.. لكن الأمر في النهاية يتطلب طرفًا عاقلًا واحدًا يطفئ النار قبل أن تزداد اشتعالًا، طرفا يصمت ولا يستجيب لإغراء الدفاع عن نفسه وإثبات وجهة نظره.

كثيرًا ما ينتج عن الصمت وقف الجدال، فالجدال والشجار مثل أي مباراة كرة يحتاج إلى طرفين ليستمر، فإذا انسحب أحدهما اضطر الآخر للتوقف. وقد يصل الجدال والمشاحنة إلى درجة عنيفة من الصعب توقفها، عندئذ، قد يحتاج الأمر أن يعتذر أحد الطرفين للآخر، حتى ولو لم يكن مخطئًا، ليوقف الانهيار.

سيدافع كل زوج عن نفسه قائلًا: «لماذا أعتذر عن خطأ لم أقترفه؟!».

أنت لا تعتذر عن الخطأ.. إنما أنت تعتذر عن مساهمتك في هذا الجدال الذي أوصلكما إلى هذا الوضع التعيس. إنك تسكب ماءً باردًا على الطرف الآخر ليهدأ. إن هدفنا الآن ليس حل المشكلة، فحلها يحتاج إلى وقت آخر، وقد لا تحل على الإطلاق. وإنما تعيشان بها، وتتعلمان كيف تتأقلمان معها، أو تحتملان هذه الخلافات معًا. وإنما الهدف هنا هو ألا تزيد الأمور اشتعالًا، ألا تكبر المشكلة. قد يكون من المناسب أحيانًا أن يخرج الرجل من المنزل أو من الغرفة حتى تهدأ الأمور.

ليس للأمر علاقة بالكرامة، ولكن له علاقة بالعقلانية، واحترام الذات، وعدم الانسياق للجدال والخطأ في الكلام. الإنسان عندما يطفئ النار يحافظ على المنزل من الانهيار، ويحمي العلاقة الزوجية من أن تصاب بما يؤثر على دوامها وصحتها. إطفاء النار يوقف خطأ الكلام والتصرفات التي تجرح الطرفين، وتظل ذكرى مؤلمة في حياتهما حتى بعد أن يعود الوئام بينهما.

قد يرد أحد الزوجين: «لا يهمني، فعلاقتنا فاشلة على كل حال، وقد مات ما بيننا». لكنه كلام يقال في لحظات الغضب، وسرعان ما ينساه. ففي حقيقة الأمر لا يرغب أي من الطرفين في هدم البيت، بل غالبًا يحملان لبعضهما حبًّا وتعاطفًا. لكن الألم والغضب يدفعاننا للتفكير في كل ما هو سيئ، فلا نرى إلا الجوانب السلبية في علاقاتنا الأسرية، ثم ينقشع ذلك كله بمجرد عودة المياه إلى مجاريها.

كلنا يغضب ويثور، ولكن أفضلنا كما قال سبحانه وتعالى: «الكاظمين

الغيظ». قد يكون موقفًا صعبًا، لكن أجره كبير عند الله، ونتيجته أفضل كثيرًا، ويحفظ للإنسان شعوره بالعزة والكرامة لأنه لم ينحدر ويقع في هوة الخطأ، بل سما بنفسه واستطاع تجاوزه.

* * *

١٥ ـ أحب لأخيك ما تحب لنفسك

كلنا نعرف هذا الحديث وننادي به ونحن مطمئنون أننا نقوم بما علينا لتطبيقه في الحياة؛ فنحن نتمنى الخير والصحة لجميع البشر، ونتأثر إن أصاب أحدهم مكروه.

لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد، فهذه أبسط صور التطبيق. وإنما المطلوب أن نمنح الآخرين الحقوق نفسها التي نطلبها لأنفسنا، فلا نتصور لوهلة أننا نتمتع بمميزات تؤهلنا لاكتساب حقوق ليست للآخرين.

وأعتقد أن الحديث الشريف يمنحنا أسلوبًا متكاملًا للحياة كذلك، ليس فقط في التعامل مع غيرنا من الناس المحيطين بنا، ولكن مع أقرب الناس إلينا بالذات مثل: الزوج، وهذه بعض التطبيقات:

يرى الزوج أن أهله هم الأحق بالإكرام، فيُستقبلون في بيته، ويقضون الإجازات معهم، ويسافرون معهم، وإن ترك أولاده لسبب أو لآخر، فيتركهم معهم، معللًا أن طريقتهم في التصرف أقرب إلى طريقته، أو لأن التفاهم معهم أسهل، أو مستواهم الاجتماعي أفضل.. وينسى أن أهل زوجه أهل أيضًا، وهم الأقرب إليه، وقد عاش وتربى معهم.. ومهما

كانت تصرفاتهم غير ملائمة، إلا أن من حقه أن يكون لهم وجود في حياته كما هو الحال مع أهله.

نرى المرأة تقبل أن تدخل أمها مطبخها، وتتدخل في شؤون بيتها، ولكنها ترفض إعطاء هذا الحق لحماتها، مع أنها أم لزوجها مثلما الأخرى أمها.

وتحب الزوجة استضافة أهلها، والخروج مع إخوتها، وتفضل أن يلعب أولادها مع أولاد إخوتها.. لذلك عليها أن تحب لزوجها ما تحبه لنفسها. فمن حقه أن تتوطد الصلة بين أسرته الصغيرة وأهله، وأن يكون لهم الوجود نفسه في حياته.

قد يثور الزوج ويغضب إذا حكت زوجته أخبارهما لأمها أو أختها، ولا يجد غضاضة في أن تعرف أمه كل شيء عنه، بل وأن تقرر أمورًا تتعلق ببيته وأولاده.. بل وزوجته أيضًا.

يتشارك الزوجان غالبًا في تأثيث المنزل، ولكن عند ترتيب البيت، تستأثر المرأة في الغالب بوضع نظامه واختيار تفاصيله، وتنزعج من تدخل زوجها أو أهله، وعذرها جاهز دائمًا؛ فهي التي ستقوم بأعباء البيت ومن حقها أن ترتبه كما تريد.. لكنه بيته هو الآخر، وسوف يعيش فيه، ومن حقه أن يكون له رأي خاص، وأن تحترم رغباته في ترتيب بيتهما.

الشيء نفسه نراه في تقرير أنواع الطعام، وملبس الأبناء، والمدرسة التي سيذهبون إليها.

يعتبر الرجل أن من حقه الطبيعي أن يحتفظ بأصدقائه القدامى، وأن يستضيفهم أو يخرج معهم.. لكن يفرض وصايته على زوجته في اختيار أصدقائها، وقد لا يكون ذلك لسبب أخلاقي حساس، وإنما قد يكون لأنه لا يستظرف تلك الإنسانة مثلًا، فينغص حياة زوجته كلما رأتها أو تحدثت معها، وقد تقوم المرأة بالشيء نفسه؛ ولا ينتبه أحدهما إلى أنه كما يحب أن يختار معارفه وأصدقاءه فمن حق الطرف الآخر أن يختار معارفه وأصدقاءه.

أنا لا أنادي بالتسيب، ولا بالحرية بدون حدود، ولكن بأن ينظر كل منا للآخر على أنه إنسان مثله، له حقوق ورغبات، يكره أشياء ويحب أشياء أخرى، ومن حقه أن تحترم حقوقه.

* * *

١٦ ـ قبل فوات الأوان

ننشغل طول الوقت بمستقبلنا ومستقبل أولادنا دون أن نفكر في الحاضر، لكن تفكيرنا في المستقبل ينحصر عادة في ضرورة ادخار المال، وفي الوصول إلى مركز معين في العمل والحياة يتيح لنا مساعدة أبنائنا في بناء مستقبلهم.

هل ورثنا هذه الفكرة عن الفراعنة الذين عاشوا يجهزون كل الإمكانات المادية من أدوات راحة وذهب ليصحبوها معهم في حياتهم الأخرى؟ وسهونا عن أن آخرتنا لا تتطلب مالًا ولا أدوات بل تتطلب عبادة وعملًا صالحًا في الدنيا.

إن الشعور بالخوف المستمر والقلق يجعلان الإنسان لا يفكر إلا في تأمين غده، حتى إنه خلال ذلك ينسى حاضره تمامًا. والمشكلة لا تنحصر في أنه ينسى حاضره، لكن في أنه ينسى من حوله أيضًا.. فهو ينسى زوجه وأولاده وأصدقاءه.

يصبح الإنسان كمن ينطلق مهرولًا فلا ينتبه لمن يدفعه أو يوقعه في طريقه، هو لا يقصد أن يضر أحدًا، لكن الضرر يقع. والمشكلة أن هؤلاء

الذين يدفعهم ويؤذيهم بانشغاله بتأمين مستقبلهم، هم الادخار الحقيقي الذي سينفعه في المستقبل.

من أعظم الدروس التي تعلمتها عندما كنت مشتركة في معسكر لاتحاد الجامعات في مرسى مطروح، وغادر المسؤولون المعسكر تاركين الأمور فوضى، فلا يوجد طعام ولا نظام، واجتمعنا وتولت الأمر مجموعة منا. وبينما أقوم بتوزيع الطعام وأنا متوترة وعصبية اقترب مني أحد المشاركين في المعسكر وسألني: لم التوتر والعصبية؟ فقلت له ألا ترى في الوضع مدعاة للتوتر؟ قال لي: وما ذنب المشاركين في المعسكر، أنت تقدمين لهم خدمة فلماذا تقدمينها بعصبية بينما يمكنك أن تقومي بالعمل نفسه وأنت هادئة والجميع راضون؟

كان درسا نفعني طول حياتي بعد ذلك. وأنا لا أطلب من الإنسان أن يتوقف عن التفكير في مستقبله أو التخطيط له، ولكن أن يفعل ذلك وهو يوطد صلاته بمن حوله، وهو يتعامل معهم بهدوء، يشاركهم أفكاره وخططه، ويستمع إلى آرائهم فلعلها أصوب، لا يعاملهم على أنهم أطفال أو سذج لا يقدرون ما يقوم به من أجلهم، لا يمضي يومه عابسًا مكفهرًا لأنه يحمل هموم أسرته ويفكر فيما سيحدث لهم عندما يموت. ليس منا من لن يموت ولكن لا داعي لأن تفقده أسرته وهو مازال على قيد الحياة.

لو آمنا بالفعل بأن العمر واحد، ولا أحد يعرف من سيموت قبل الآخر، ومتى سنموت، وأن اليوم المحدد لوفاتنا لن يتغير لا بالتخطيط ولا بالقلق، لو آمنا بأن رزقنا سنحصل عليه مهما حدث؛ لعرفنا أن من

الأفضل لنا أن ندخر صلات طيبة تربطنا بزوجنا وأولادنا، أن نحرص على ذكريات جميلة نعيشها وتدعمنا عندما نمر بالصعاب في حياتنا، أن نعرف أن المال لن يسندنا في آخر عمرنا ولكن ما سينفعنا هو حب من حولنا.

على الإنسان أن يدخر قدر ما يستطيع من صداقات في شبابه؛ لأن تكوين الصدقات في الكبر يكون صعبًا، وفقدان الصداقات في الكبر يصبح سهلًا.. وغالبًا ما ننشغل بالعمل وتكوين المستقبل والقلق على أولادنا؛ فلا ننتبه للقدر الذي نبتعد به عن الناس، ونتصور أن أولادنا سيكفوننا حاجتنا للأصدقاء في الكبر، وننسى أنه ستكون لهم حياتهم، وسينشغلون عنا في أوقات كثيرة مهما كانت صلتنا بهم جيدة، فالأفضل أن تكون لنا صدقات ومعارف تملأ حياتنا، وتدفع عنا الحاجة إلى استجداء أولادنا ليمضوا معنا بعض الوقت.

الإنسان يرتكب أخطاء كثيرة في حياته، مع زوجه، ومع أولاده، في علاقته الزوجية، وفي تربيته لأبنائه؛ والحل أن يوازن هذا القدر من الخطأ بكثير من الصواب، فيقضي أوقاتًا ممتعة معهم، ويتحدث إليهم، ويعلمهم ويتعلم منهم، ويعبر لهم عن حبه وتقديره. فالكلمات البسيطة قد تقلل من أثر المواقف المؤلمة. ليس هناك أجمل من شعور الإنسان أنه محبوب وعزيز على شخص آخر، بالرغم من عيوبه وأخطائه. المهم أن نحصن حياتنا بمزيد من الحب والاهتمام بمن هم قريبون منا أو حولنا، فهذا هو التأمين الحقيقي للمستقبل وليس ادخار المال.

١٧ ـ العمل

الجميع يشتكون البطالة لكن لا أحد يريد العمل. كنا نسخر من أهل الخليج لأن كل الشباب هناك يرغبون في العمل كمديرين، وإذا بهذه الفكرة تنتقل إلينا مع بعض التحريف، فكل الشباب يريدون عملًا سهلًا، وأجره كبير ووقته قصير، مواعيده تناسب حياته الاجتماعية.

كان الناس يرون أن الأصل أن يعمل الإنسان، وكنا نسخر من أبناء الأثرياء المتبطلين، ونطلق عليهم عاطلون بالوراثة.

كان العمل يحقق نوعًا من الإشباع الذاتي للإنسان، ونرى توقف الإنسان عن العمل، ببلوغه سن المعاش، حكمًا بالموت.. فما الذي حدث؟ ما الذي تغير في مفاهيم الناس حتى أصبح العمل حكمًا بالشقاء، وأصبح كل إنسان يحاول توفير تكاليف حياته بأي طريقة إلا العمل الشاق؟!

مع انتشار النزعة الاستهلاكية زاد طلب الناس على المال لسد رغباتهم الاستهلاكية، لكن لم يزدهم هذا نشاطًا ولا رغبة في العمل لتوفير هذا المال؛ ربما لأن الرغبات الاستهلاكية ترتبط بنوع من الحياة يعتمد على الرفاهية والمتعة بدلًا من العمل، فإعلانات المنازل تصور إنسانًا مستلقيًا

سعيدًا لا يقوم بأي عمل، وإعلانات الأجهزة الكهربائية تخبرك أنها ستقوم عنك بالعمل فتبقى أنت مستلقيًا سعيدًا، ولو اشتركت في هذه المسابقة أو تلك ستكسب رحلة تبقى فيها مستلقيًا على الشاطئ... وهلم جرا. لقد تحول مفهوم السعادة إلى عكس مفهوم العمل.

بالإضافة إلى أنه مع انتشار الاقتصاد الاستهلاكي زاد من الطلب على موظفين يكون كل ما عليهم عمله هو الرد على الهاتف، والاستجابة لطلب المستهلكين، أو تزويدهم بالمعلومات، ويحصلون في مقابل ذلك على رواتب عالية، وهو عمل لا يتطلب الكثير من الجهد والإبداع، بل توفر لك الشركة مدربًا يخبرك كيف ترد على الهاتف وكيف تتحدث. وهكذا تحول قسم كبير من الشباب خريجي الجامعات إلى بائعين على طراز حديث، سواء على الهاتف أو في الوكالات. وأصبح كل ما نفعله أن نبيع لبعضنا سلعًا لا ننتجها، سلعًا يمكننا الحياة بدونها، فهي مجرد خدمات وأحلام. وانغمس الجميع في هذه الحياة، لم يعد أحد مستعدًا ليقف ساعات أمام آلة أو يسير خلف محراث، وترك الفلاحون أرضهم ليعملوا مناولين بناء، أو حراسًا للعمارات، أو فراشين في أحسن الأحوال، فأهمية العمل لا تهم.. المهم الحصول على المال الذي يوفر السلع الاستهلاكية التي تحيط بنا في كل مكان، والتي لا نستطيع أن نعيش دونها، ومن المؤكد أنها ستجلب معها السعادة.

هذا المفهوم دخل منازلنا أيضًا، وأصبح الجميع يطلبون خادمًا ليقوم بالعمل عنهم، ومربية لتهتم بالأطفال، وإذا سألت الزوجة عما تفعله كان ردها إما أنها تقوم بعمل أهم في الخارج، أو أن زوجها لم يتزوجها لتعمل

خادمة بل هي زوجة لها كيانها؛ كما لو أن العمل في المنزل يقلل من احترام الإنسان لنفسه واحترام الآخرين له.

وأصبح هدف كل أم وأب أن يرحما أبناءهما من القيام بأعمال المنزل الكريهة، وهناك كثير من الأهل يدفعون لأبنائهم مقابل القيام ببعض الأعمال المنزلية. فضاعت فكرة أن هذا بيتنا وعلينا القيام بشؤونه، وأن هؤلاء أهلنا فلابد أن نعينهم، بل وأصبح العمل عقابًا عند كثيرين منهم. فالطفل يسمع أمه تتذمر طول اليوم من أعباء البيت وتشكوا أنها أصبحت كالخادمة.. وعادت الخادمة إلى مرتبة العبيد أو أسوأ فهي تعمل طول اليوم وأحيانًا تعمل في عدة بيوت، وهي لم تعد جزءًا من الأسرة كما كانت في الزمن السابق، لا تنتقل في العمل بين أكثر من منزل.

لقد أصبح هدف الناس ألا تعمل وألا تشقى، بل تتوفر لهم الإمكانات التي تتيح قضاء وقتهم مستلقين يشاهدون التلفاز، أو يتنزهون مع أصحابهم.

المشكلة أنه بالرغم من زيادة أوقات الفراغ، وانتشار الأجهزة الحديثة في البيوت، ووجود من يقومون بالعمل بدلًا منا، كل ذلك لم يجعل السعادة تحوطنا أو تشع من بيوتنا، بل على العكس أصبحنا دائمي الملل وأكثر تطلبًا، كما زادت ـ المشاكل الزوجية لأن كلا الزوجين أصبح هدفه التمتع بالحياة وليس القيام بواجباته الأسرية.

صرنا نسمع عبارات جديدة من أطفالنا أشهرها: «أشعر بالملل».. «لا أجد ما أفعله».. وزادت طلباتهم من الألعاب ورغباتهم في التنزه ..

مع عدم رضاهم عن أي شيء. بل كثيرًا ما أصبح تناول الطعام هو التسلية الأساسية لهم، وهم مستلقون أمام التلفاز، خاصة مع توفر خدمة جلب الطعام من الخارج.. كما ظهر نوع جديد من المشاكل في البيوت نتيجة كسل الأبناء وبدانتهم، وانتشر الشجار والصراخ والسباب في البيوت أكثر من أي وقت مضى.

والغريب أن الأهل يستغربون لأن أبناءهم يتذمرون ويشكون عندما يطلب منهم القيام بأي شأن من شؤون البيت. ولا ينتبه الأهل أن هؤلاء الأبناء لم يعتادوا القيام بأعمال في المنزل من صغرهم، بل لم يسمعوا إلا شكوى من الأب عن كم يتمنى لو كان معه المال الكافي ليتوقف عن العمل، ويمضي وقته مسترخيًا سعيدًا لا يفعل شيئًا، أو شكوى الأم أنهم يعاملونها كخادمة عليها أن تطهو وتغسل وتنظف طول اليوم كما لو كانت الجارية التي ابتاعها لهم أبوهم.

العمل حل لكثير من مشاكلنا فهو يقلل وقت الفراغ والملل الذي أقل ما يجلبه هو المشاحنات بين الزوجين والمشاحنات بين الأطفال، كما أن الشعور بالإنجاز يعطي الإنسان شعورًا داخليًّا بالرضا، وبأن لحياته معنًى.

الأم التي تعتاد القيام بالأعمال المنزلية مع أطفالها دون تذمر، بل أحيانًا تقوم معهم بالعمل كأنه لعبة يلعبونها: لعبة تنظيف المطبخ، لعبة ترتيب المكتبة، لعبة ترويق الصالة، تحضير المائدة، غسل الأواني، جمع الغسيل... سوف توطد صلتها بهم، وتزيد من ارتباطهم بالبيت، وتشغل

وقتهم فيما ينفع فلا يتشاجرون، وتخفف من أعبائها؛ لأنهم سيعتادون القيام عنها ببعض الأعمال حتى لو كانت بسيطة، وينشغلون فلا يطلبون منها أن ترفه عنهم وتسليهم طول الوقت، وتكون بذلك أشبعتهم عاطفيًّا بصحبتها ومشاركتها. كما أن عمل الطفل في البيت يشعره بأنه مسؤول عنه مثل أمه وأبيه، فيحرص على نظافة البيت وترتيبه، ويولد لديه شعورًا بالإنجاز والمشاركة.

لا يجوز أن ننتظر حتى يكبر الأولاد فنعلمهم شؤون البيت، فالعملية تأتي بالتدريج.. حتى الطفل الذي في الثانية من عمره يعرف كيف ينظف التراب عن المنضدة بقطعة قماش، حتى لو خصصنا له قطعة قماش لاستخدامه. وأن يعيد صحنه أو كوبه إلى المطبخ، ويأتي بألعابه الملقاة على الأرض..

ويمكن للأطفال أن يساعدوا في قضاء طلبات البيت إذا اصطحبناهم إلى السوق لشراء الطلبات، فيعرفون الصنف الذي نحتاجه، وأين نجده، وبكم نشتريه.. وهذا يفيدهم جدًّا في حياتهم؛ يجعلهم ملمين، ولو جزئيًّا، بميزانية البيت، ويعرفون أن الحصول على ما يرغبون فيه يتحدد حسب الإمكانات المادية، أي دخلهم والتزاماتهم.

إذا دفع الأهل مالًا للابن مقابل عمله في البيت، فهم يحرمونه من الشعور بالانتماء لهذا البيت، ويربط عمل الابن بالعائد المادي فقط. فلا يتعلم أو يشعر بمتعة الإنجاز أو بأنه شخص يعتمد عليه، بل تصبح الصلة بينه وبين والديه صلة مادية بحتة، لا يدخلها شعور بالمسؤولية أو التعاطف أو المشاركة.

* * *

١٨ ـ القبح

لا شك أن القبح يسود نواحي كثيرة في حياتنا؛ نجده في منازلنا، شوارعنا، مبانينا. والقبح لا ينتج عن اختلاف الأذواق فقط، أو عدم وجود نمط لمبانينا، أو الفقر، ولكنه في أحيان كثيرة ينتج عن الإهمال؛ فوجود الجمال لا يتطلب كثيرًا من الجهد والوقت والمال. فلو اهتم كل صاحب محل بتنظيف الرصيف أمام محله، ووضع أُصُص زهور أو مجرد نبات أخضر، لتغير الشكل تمامًا، لو لم نلق مخلفاتنا في الطريق، لو حافظ كل منا على نظافة سيارته، لو حرصنا على تناسب الألوان في مبانينا ومحلاتنا؛ لتغير شكل شوارعنا تغيرًا أساسيًّا.

كما أن القبح يصل إلى داخل البيوت، نكدس الأثاث والأدوات، نكنز منها كميات تزاحمنا في بيوتنا؛ فلا نجد مساحة تريحنا. نحتفظ بكل ما هو قديم، بكل ما توقفنا عن استخدامه من ملابس وأدوات وأثاث بال.

نربط دائمًا بين القبح والفقر، قد يمنعنا الفقر من ارتداء الملابس الجديدة أو الفاخرة، لكنه لا يمنعنا من ارتداء ملابس نظيفة ولا يمنعنا

من تنظيف بيوتنا، مشكلة الفقر أن الإنسان يحصل على كثير من الأشياء على هيئة تبرعات من الآخرين فلا تكون في حال جيدة، وغالبًا ما تكون بالية أو غير متجانسة، فلا يتشابه الأثاث والأدوات، وليس لدى الفقير الميل للتفكير فيما هو جميل أو قبيح فهو في حاجة لهذه الأشياء، ورغم أن الفقير قد يكون معذورًا، إلا أن المشكلة أنه غالبًا ما يكدس كل ما يحصل عليه من تبرعات في بيته دون حاجة حقيقية، ربما لعدم شعوره بالأمان. أو ربما يخاف أن يرى الناس صورة بيته مقبولة، فيتوقفون عن مساعدته، وله حق في ذلك، فثقافتنا تربط الجمال ببحبوحة العيش، فيعتبرون من يرون في عيشه مسحة من جمال أو أناقة لا يستحق المساعدة، فالقبح عندهم دليل على الفقر. رغم أننا نجد في بلاد أخرى من هم أفقر من فقرائنا يزينون نوافذهم بالنباتات العطرية.

لكن مشكلة القبح منتشرة بين الميسورين أيضًا.. فالقبح يرتبط في بيوتهم بالتكديس؛ فالناس عمومًا تميل بشدة لامتلاك الأشياء والاحتفاظ بها. ويربطون ذلك أحيانًا بالتدين؛ فلا يجوز ازدراء النعمة والتخلص منها، مهما زادت عن حاجته أو كانت قديمة أو قبيحة، بينما كثيرون غيرهم لا يجدونها أصلًا.. إذا كان ذلك سببًا حقيقيًّا، فلماذا يحتفظون بها بدلًا من أن يعطوها لمن يحتاجها؟!.. وكثيرًا ما نعلل احتفاظنا بالأشياء أنها ترتبط بذكرياتنا؛ فهذا أول ثوب ارتدته ابنتي، وهذا كرسي ابني وهو صغير، وتلك الأريكة كانت أمي تستلقي عليها، وهذا المكتب أحبه أبي؛ ونعتبر الاحتفاظ بأغراض من مات من الأهل، أو غادر المنزل، وفاء له؛ فيتكدس الأثاث، بعضه غير عملي، وبعضه قديم وقبيح وهو عادة لا

يلائم باقي الأثاث، وأحيانًا يكون مكسورًا نسنده ليظل قائمًا، أو نضعه في الشرفة لعلنا نصلحه ذات يوم.

الشرفات.. ما أقبح شرفات بلدنا! كأنها بنيت، لا لتكون واجهة أو مكانًا نشرف منه على ما يحيط بنا، ولكن لتكون مكانا نكدس فيه أثاثًا غير صالح للاستعمال، وصناديق لا تعرف ما فيها، وأدوات عفا عنها الزمن مثل دراجة ابننا وهو طفل.

أما مطابخنا فحدث ولا حرج، لا أتحدث هنا عن النظافة، ولكن عن القبح، عن أواني الطهي المعوجة، والصحون والأكواب المشروخة، عدد برطمنات المربى وعلب الحلاوة الفارغة التي تملأ مطابخنا لعلنا نحتاجها ذات يوم. ولا أعرف لماذا نحرص أن يأكل الخدم في أطباق قبيحة ويشربون من أكواب مشروخة، كأنما لو استخدموا أدوات جميلة الشكل سيتساوون بنا. وعندما تسأل لم الاحتفاظ بهذا الكوب المشروخ؟ يكون الرد أنه مازال صالحًا للاستعمال، لا أحد يفكر هل هو جميل أم لا، وهل عندنا ما يكفي للاستعمال بدلًا منه أم نحتاجه فعلًا.

إن مفهوم الجمال غائب عن حياتنا، فنحن نصر على أن نستخدم الملابس الداخلية القديمة في التنظيف وفي المسح رغم أن فوط التنظيف لا تكلف الكثير.. وحتى هذه الغيارات من السهل تحويلها إلى فوط دون أكتاف أو أرجل بدلًا من استعمالها على هيأتها الأصلية، ونعتبر أنفسنا اقتصاديين عندما نفعل هذا. وتصر ربة المنزل على أن تعمل في المنزل وهي مرتدية ثوبًا قديمًا أو قذرًا أو ممزقًا رغم امتلاء خزانتها بالملابس، ولكنها

تربط العمل في المنزل بالثياب الرثة والشعر الأشعث؛ فيكفيها ما عليها من أعباء، ولا وقت لديها لترتدي ثوبًا جميلًا للعمل، كأن العمل نفسه نوع من القبح لا يلائمه المظهر الجميل.

إن المظهر الجميل مرتبط عندنا غالبًا باستقبال زوار أو الخروج، ولننظر إلى ما يرتديه أبناؤنا في بيوتهم، فهم يبقون أغلب الأوقات بملابس النوم حتى لا يفسدوا ملابس الخروج غالية الثمن أثناء لعبهم، حتى لو كانوا لا يخرجون كثيرًا لا يهم.. المهم أن يبقى الجميل للخارج. فالجمال مظهر خارجي لا نشعر به ولا نحتاجه لأنفسنا، بل هو قشرة خارجية نستعرضها أمام الآخرين فقط.

وكثيرًا ما نربط القبح بالزهد، خاصة في حالة كبار السن الذين يخجلون من ارتداء ما هو جميل، أو استخدام أدوات جميلة الشكل، أو اقتناء أثاث جميل، فالمفروض أنهم فقدوا الرغبة في الحياة بعدما كبروا ووصلوا لهذه السن، وليس من المقبول أن تكون لهم رغبات، فليتركوا الرغبات لأبنائهم.

الجمال ليس مكلفًا، إنه اهتمام بالنظافة والبساطة، اهتمام بأن نقتني أشياء جميلة، وعادة ما يكون الجمال في البساطة.. فأحيانا عدم شراء الشيء أو عدم ملء المكان يكون لمسة جمالية. فاللمسات لا تكلف كثيرًا، أصيص ريحان على النافذة، مفرش نظيف على المنضدة، ثوب نظيف بسيط، والأهم رغبة في الحياة الجميلة مهما بلغ بنا العمر.

* * *

١٩ ـ التفاخر

أصبحنا مجتمعًا استهلاكيًّا، وقد اتجهت مجتمعات العالم كلها نحو النزعة الاستهلاكية، وأشهرها طبعًا المجتمع الأمريكي الذي أخذنا عنه الكثير من قيمه وعاداته الاستهلاكية. لكن المشكلة التي تسير جنبًا إلى جنب مع النزعة الاستهلاكية في بلادنا، هي التفاخر، وأعتقد أن هذا التفاخر، وليس الرغبة في الاستهلاك، هو السبب الحقيقي وراء انتعاش الأسواق في بلادنا، فالتفاخر هو الدافع الرئيس لأغلب تصرفات جميع طبقات المجتمع من أدناها إلى أعلاها.

فالطبقات العاملة الفقيرة تشقى ليس فقط للحصول على سلع استهلاكية لا تحتاجها في الواقع، ولكن لامتلاك ما تتفاخر به على أقرانها، أو على الأقل لتمتلك ما يشعرها أنها ليست أقل من الآخرين.

ففي رمضان مثلًا تشقى الخادمة في عملها شهرًا كاملا، لتنفق نصف ما تكسبه على وليمة إفطار قد تقدم فيها مثل ما يقدمه الميسورون في ولائمهم، وعذرها جاهز: «يأكلون وجهنا إذا لم نفعل ذلك». كأن كرامتهم وأهميتهم واحترام الناس لهم مرتبط بكثرة الإنفاق على الطعام

الذي سيقدم لضيوفهم. بل إنها تدخل جمعية، وتقترض من المرابين ومن البائعين والأقارب، لشراء ملابس لابنتها التي على وشك الزواج، ملابس لا تصلح لحياتهم ولا لظروفهم، ولكنها تشعر أن امتلاكها لهذه الملابس يجعلها ذات قيمة في أعين الآخرين.

ولعل الرغبة المجنونة في امتلاك أشياء لا نملك ثمنها لنتفاخر بها أمام الآخرين ولكي لا نشعر أننا أقل من غيرنا ـ هو الذي أدى إلى زيادة وجود المرابين في الأحياء الشعبية، وقد لجأ هؤلاء المرابون إلى وسائل جديدة للإقراض بالربا تتوافق مع تلك النزعة للتفاخر مع عدم وجود الإمكانات المطلوبة؛ فأنت تذهب للتاجر، الذي هو في حقيقة الأمر مرابٍ، لتشتري منه سلعة معمرة أو ملابس أو أي شيء آخر من مستلزمات البيوت، فيقسطها لك مع زيادة قد تبلغ خمسين بالمائة من سعر السلعة. ويتدفق عليه الناس، ويكتبون على أنفسهم إيصالات أمانة قد تؤدي بهم إلى السجن، ولكن هذا كله فداء للمظاهر؛ كي لا أكون أقل من غيري، ويا حبذا لو كنت أحسن من غيري، وأحيانًا يكون الهدف الوحيد هو ألا يسلقني الناس بألسنتهم.

والآن، نأتي إلى الطبقة المتوسطة، التي تجاهد لمواجهة أعباء الحياة، لكنها لا تستطيع أن تواجه الشعور بالخزي إذا لم توفر لأبنائها ما يحصل عليه الآخرون من تعليم وعلاج وملبس وأجهزة، ضرورية أو غير ضرورية.. ولا يستطيع الأبناء احتمال فكرة أن يظهروا أقل من أصدقائهم، ويعبرون عن ذلك قائلين: إنها ليست مشكلتنا أن آباءنا لا يقدرون.. لماذا أنجبونا إذن؟! ليعذبونا في الحياة بالحرمان المستمر؟

والمشكلة ليست في الأبناء وحدهم، ولكن الأمهات في الطبقة المتوسطة، وفوق المتوسطة، يشعرن أن الواجب على الآباء أن يوفروا لأبنائهم مستوى عاليًا من المعيشة حتى لو اقترضوا، المهم أنها وأبناءها ليسوا أقل من غيرهم، وعلى الأب أن يفعل المستحيل، سواء كان خطأ أو صوابًا، ليدخل ابنه مدرسة لغات، والأفضل أن تكون إحدى تلك المدارس العالمية التي تبلغ مصاريفها آلاف الجنيهات، وعذرها حاضر دائمًا؛ فنحن لا نتكلم عن أمر تافه وإنما نتحدث عن مستقبل أبنائنا، وابني ليس أقل من ابن أختي أو ابن جارتي التي حدثتني عن مميزات هذه المدرسة أو تلك، مثل وجود حمام سباحة أو مستوى عال من دراسة اللغة الأجنبية، أو ليس بها التزام بأداء واجبات... وهي غالبًا أمور ليست ضرورية في حياتنا، وأحيانًا تكون مضرة.

ثم نأتي لمسألة النادي، وما بالك بمأساة النوادي، فقد أصبحت قضية الاشتراك في أحد الأندية ضرورة تستهلك أوقات الأسرة في مناقشات وجدال؛ إذ كيف يعيش الأولاد دون الاشتراك في ناد، حتى لو كان الأبوان لم يذهبا إلى أي ناد في حياتهما، لكن هذا ليس مبررًا، لأن زمانهم غير زماننا، والآن لا توجد أماكن للعب إلا في النادي، وممارسة رياضة أمر ضروري لكل الناس، ونشاهدها في التلفاز. وأصبحنا نسمع عن أسعار خيالية للتدريب على التنس وغيره من الرياضات المترفة، وأصبح التدين من أسباب الحرص على ركوب الخيل الذي أوصى به الرسول ﷺ!

وهكذا دخلت الأسرة في بلادنا في دوامة من التفاخر، لا تكاد تنتهي من سد باب من أبوابه حتى ينفتح عليها آخر، فكل يوم تظهر صرعة

جديدة، وكل يوم يتحدث الناس عن أهمية امتلاك شيء مختلف، أو الالتحاق بمجموعة نشاط مبتكر، وانهزم الجميع أمام هوجة التفاخر التي سادت المجتمع، وأصبحنا ننفق الكثير من دخلنا وجهدنا على أشياء لا أهمية لها إلا أنها تجعلنا لا نتخلف عن ركب التفاخر.

ثم نصل إلى الطبقات بالغة الثراء، فنجدهم لم يسلموا من داء التفاخر، فهم مهما بلغ ثراؤهم لا يستطيعون التخلص من محاولة إثبات أنهم ليسو أقل من الآخرين، فظهر نوع من التنافس المجنون على اقتناء السيارات والمنازل والشاليهات، لا لشيء إلا ليعرف الآخرون أنهم قادرون على الشراء. وبلغت أسعار المنتجعات في بلادنا أسعارًا أغلى من مثيلاتها في أوروبا وأمريكا؛ لأن المهم أن نشتري هنا في بلادنا، في المجمعات والمنتجعات التي تملأ إعلاناتها الشوارع والجرائد ويتحدث عنها الناس.. وهكذا يمكنني أن أتفاخر أنني أحد أفراد تلك الطبقة التي تمتلك منازل وسيارات بالملايين، لا يهم إذا كنت أستخدمها أم لا، أتمتع بها أم لا، تسد احتياجاتي أم أنها أكثر من احتياجاتي، المهم أن يعرف الآخرون أنني قادر على الشراء.

هنا، تذكرت تلك العبارة المشهورة: «العذاب هو الآخرون». فنحن نتحرك ونتصرف، نأكل ونلبس، نتعلم ونتنزه، بل ونتداوى، وعيوننا على الآخرين، كأننا نحتاج منهم أن يمنحونا صك الغفران، كأننا دون رضاهم لن يكون لنا وجود.

لقد وصل التفاخر إلى أمور ديننا، فلا تجلس في مجلس إلا وتسمع

من يحكي عن عدد ركعات القيام التي يصليها، وعدد أجزاء القرآن التي يقرأها، والصدقات التي يدفعها...

لقد أمرنا الله أن نكتم صدقاتنا، وألا نتفاخر بملبس أو مسكن، ورغم أننا نرى أننا أصبحنا أكثر تدينًا إلا أن سلوكنا يبتعد كثيرًا عما أمرنا به الله.. والخوف كل الخوف أن تدفعنا رغبتنا القاتلة في التفاخر أن نعصي الله أو نرتكب آثامًا وكبائر مثل السرقة والربا، رحمنا الله ورحم أبناءنا من هذا المصير.

* * *

٢٠ ـ الملل

يخيم على حياتنا شعور عام بالضيق والملل. كبار السن يقولون إن الحياة لم تعد طيبة وممتعة كما كانت عندما كانوا صغارًا.. ويقولون: «مساكين أبناء هذا الجيل، لم يعرفوا المتعة التي تمتعناها». ويبحث الشباب عن طرق مختلفة للتسلية، لكن كل شيء ممل.. الأيام رتيبة متكررة لا جديد فيها. ويبحث الآباء عن طرق لتسلية الأبناء؛ لكن لا شيء يجدي، فالأبناء يتبرمون طول الوقت.

غريب أن يشعر الإنسان بالملل وقد توفرت له وسائل أكثر للتسلية، وأماكن أكثر للسفر، وسهولة أكثر في الانتقال.

الأمر يشبه الفرق بين طفل يصنع ألعابه من أغطية الزجاجات والعلب الفارغة، وبين طفل تتوفر له كل يوم لعبة جديدة.. من الغريب أن نجد الطفل الأول لا يشكو من الملل أبدًا، بينما يشكو الطفل الثاني من الممل طول الوقت.

أعتقد أن تلقي التسلية يختلف عن خلق التسلية، إنه كالفرق بين إنسان جالس وهناك من يحرك رجليه ويديه في حركات رياضية، وآخر يمارس الرياضة بنفسه.

إننا نتوقع من الحياة أن تأتي لنا كل يوم بجديد، جديد لا نعرف كنهه، شرط ألا يكون أمرًا سيئًا، نتوقع شيئا جديدًا يغير من رتابة حياتنا.

رتابة الحياة جزء من دورة الكون، فكل شيء يتكرر حولنا، الشمس والقمر، الليل والنهار، الصيف والشتاء.. إننا نستيقظ كل يوم ونتناول الإفطار ونذهب لعملنا ونعود من عملنا لنقوم بأعمال المنزل والأطفال، والطفل يذهب إلى مدرسته ويعود لتناول الغداء وتأدية واجباته. بل إننا ننزعج من أي خلل في هذه الأعمال الروتينية.

المشكلة في تبرمنا المستمر من أعبائنا، إننا نطلب حياة كلها متع وراحة، لكن الواقع غير ذلك، الواقع أن الراحة مجرد جزء من دورة الحياة، والإنسان لا يعيش في راحة دائمة.. هذا تصور مناف لنظام الكون كله، النظام القائم على أن يقوم كل منا بالتزاماته. وتذمر الإنسان المستمر من أعباء الزواج والأبناء والبيت والعمل لا يخلصنا منها إنما يجعلها أثقل.. فلنجرب الفرق بين تنظيف البيت أو ترتيبه أو إعداد الطعام ونحن نستمع للموسيقى أو الأغاني التي نحبها وبين أداء نفس الأعمال ونحن نشعر بالقهر والظلم والإهانة.. هل جربنا الفرق بين إطعام الأطفال ونحن نقص عليهم قصة أو نلعب معهم لعبة، وبين أن نصرخ فيهم أو نؤنبهم ونعاقبهم؟

سيقول الجميع: «من أين لنا بالوقت والبال لنفعل؟ هذا إن أعباءنا لا تنتهي، فهل نضيف إليها قص القصص لأطفالنا؟.. ومن منا يتمتع بسماع أغاني الحب وهو ينظف الحمام؟».

الأمر لا يتطلب مزيدًا من الوقت، إنه يستغرق الوقت نفسه وربما أقل، ولكنه سيرحمنا من الصراخ في الأطفال والشعور بالأسى على أنفسنا.

نعم.. أغلب الأعمال روتينية، وأحيانًا مرهقة وثقيلة على النفس، لكن التذمر لا يغيرها إلى الأفضل.. بل يزيدنا ضيقًا وإحباطًا، ويبقى علينا تأدية العمل، وتزداد علاقتنا بأزواجنا وأبنائنا سوءًا.. وتبقى الأعباء كما هي.

الملل ينتج عن نظرتنا إلى حياتنا على أنها رمادية اللون، ليس فيها ما يبهج، ولا تمنحنا مقابلًا ولو معنويًّا لما نقدمه من أعمال.. إننا نحن من يمكنه إدخال الألوان والبهجة على حياتنا، والمقابل الذي نحصل عليه هو شعور بالرضا ناتج عن إنجاز ما علينا من أعمال.. بدلًا من التذمر والشكوى.

الأيام الماضية لم تكن أجمل، ولا حياتنا ونحن صغار كانت الأروع، لم تكن لدينا أعباء ولكن لم تكن لدينا حرية حتى في اختيار الطعام الذي نأكله واللبس الذي نلبسه.

إن كل فترة في حياة الإنسان لها بهجتها ولها أعباؤها.. علينا نحن أن نتمتع بما فيها من بهجة، ونقوم بما علينا من أعمال.

إذا كنتُ سأقوم بالعمل ولا مفر منه، فلماذا لا أقوم به وأنا سعيدة، إن الاستماع إلى الأغاني قد يجعل ترتيب الأسرة مسليًا، مشاركة الأبناء في ترتيب الخزانة أو المكتب، ومشاهدة الصور وتذكر الذكريات يجعل

منها ذكرى ممتعة وتقارب بين الأهل والأبناء. وتشجيع الأبناء على القيام بالعمل على أنه نوع من المرح والتسلية يوفر لنا جهدًا ووقتًا ويقلل من العصبية والصراخ الذي يملأ بيوتنا.

الحياة ليست قصة خيالية ولا فيلمًا سينمائيًّا، إنها عمل تتخلله أوقات راحة ومتعة. هل تلاحظون أنه في القصص الخيالية والأفلام ينتهي الأمر بالبطلة وقد تزوجت أمير الأحلام ولكن لم نعرف أبدًا ماذا فعلت بعد ذلك، لأنها ببساطة ستفعل كل ما يفعله غيرها إذا كانت أميرة سيكون عليها القيام بأعباء الإمارة، وقضاء ساعات طويلة في انتظار أن يفرغ زوجها من أعباء الحكم فتراه للحظات قبل أن ينام من التعب. وإذا كانت فتاة عادية تزوجت من تحب فسيكون عليها أن تقوم بأعباء البيت، فهناك طعام عليها أن تعده ومنزل لابد أن تنظفه، وزوج يعود تعبًا من عمله.

السر ليس في الانتهاء من أعباء نقوم بها، بل في كيف نقوم بها بأقل قدر من الضيق، وتحويلها إلى عمل مسل، فلا نتبرم من أن علينا كل يوم أن نقوم بالأشياء نفسها.

* * *

٢١ ـ نظرة في تربية أطفالنا

مشكلة اليوم وكل يوم: كيف نربي أبناءنا؟ هل علينا أن نقوم بكل هذه الأعباء؟ لماذا لا يطيعوننا؟ لقد كانت تربية الطفل أسهل في الماضي!

الحقيقة أن تربية الطفل لم تكن أسهل في الماضي، هي دائمًا مهمة شاقة تتطلب الكثير من العمل، وعلى قدر ما نبذله من جهد نجني، بعد سنوات، ثمارًا.. عندما تفاجأ ذات يوم بابنك أو ابنتك يكرر مبادئك، أو يعلم أبناءه ما تعلمه منك.. حينئذ فقط تشعر بالرضا. وإذا كانت التربية الآن أكثر صعوبة، لأن الإنسان يواجه مؤثرات كثيرة من الخارج، مثل المدارس والتلفاز... إلى آخره، إلا أنه كانت هناك دائمًا مؤثرات خارجية وإن اختلفت في حدتها، كما أنه لم تتوفر للأهل إمكانات المعرفة والمساعدة الموجودة الآن، من كتب وبرامج وخبرات تساعدهم على فهم الطفل والتعامل معه.

يولد الطفل ضعيفًا رقيقًا، ويكون في ذهن الأب والأم أن يقوما بتربيته على أحسن وجه، لكن إرهاق الفترة الأولى في حياة الطفل تجعلهما غير قادرين إلا على توفير المأكل والملبس النظيف في أغلب الأحيان،

حالمين بأن ينام حتى يحصلا على شيء من الراحة، آملين أن يكبر قليلًا فيقل قلقهما عليه فينعما بالهدوء. وهذه الفترة مجهدة جدًّا على الأم خاصة، فهي تقلق طول الليل، ولا يرحمها الأهل من نصائحهم، وتتوالى عليها الإرشادات من كل الناس: اتركيه يبكي.. احمليه.. لا ترضعيه.. حددي موعد نومه... الخ. آلاف الآراء والنصائح التي تربك الأبوين الشابين.

لكن في هذه السن لن يفسد الرضيع بالتدليل فحمله وتهدئته لن يجعلاه مدللًا، فهو لا يعرف إلا أنه يريد أن يأكل ويرتاح ويشعر بالتلامس من أمه، وليس معنى أنه يبكي فيحصل على ما يريد من طعام أو ضم أنه سيكون طفلًا مستبدًّا، ولا أن الرضيع لئيم بطبعه فلا يجوز أن نخضع له.. فالرضيع لا يعي كل هذه الأبعاد، وبقدر ما يحصل من حب واهتمام، سيكون مستقرًّا نفسيًّا، حتى لو لم يرض الآخرون عن ذلك. هذا ليس وقت التربية إنه وقت الحب والاهتمام، ولا داعي أن يزيد الأبوان على تعبهما الخوف من أن يفسدا رضيعهما.

في حوالي السنتين يبدأ الطفل بإدراك ما حوله، ويعرف أن له رغبات، يحاول أن يحصل عليها، ويبدأ ما يسميه الأهل بداية عصيان الأبناء، وهنا يتصرف الأهل بشكل من اثنين: إما أن يعتبروا تصرفات الطفل محض دلال طفولي، ويضحكون منها ويقصون عنها القصص، ويرضخون لرغبات الطفل كليًّا، على أمل أن هذا كله سيتوقف عندما يكبر ويفهم. وإما أن يكون رد فعل الوالدين قاسيًا وحاسمًا، فيعاقبون الطفل ويعنفونه، ويضربونه أحيانًا، واثقين أن من واجبهما تربية طفلهما.

لكن الطفل في هذه السن يبدأ أولى خطواته في فهم ما حوله، ويبدأ بتجربة الطرق المختلفة للتعامل، فإذا شتم الأم فضحكت وقصت لجارتها القصة، فسيشعر أنه يمكنه أن يكرر هذا، لأنه يجعله محور اهتمام. نرى كثيرًا من الآباء يضربهم أطفالهم في هذه السن فيضحكون، بل أحيانًا يقبلون تلك اليد الصغيرة الرقيقة. وأحيانًا أخرى ينهرون الطفل ولكنه لا يتوقف فيضربونه أو يعاقبونه. إن كل المطلوب أن تمسك بيده التي يضرب بها، وتقول بصوت حاسم إنه من المرفوض أن يضرب، وتظل ممسكًا بيده حتى يتوقف، وتكرر هذا في كل مرة، دون صراخ أو تعنيف حتى يتوقف.

في هذه السن تبدأ خطوات التربية الأولى، نعلم أطفالنا النظافة والنظام، ولكن لابد أن نعرف أن الطفل لا يتعلم بالإرشادات الكلامية وحدها، فذلك من المستحيل.. قد يتعلم قليلًا عندما يرى أهله يقومون بالعمل، ولكن لابد من مساعدته على القيام بالعمل في هذه السن، مثل اصطحاب الطفل كل مرة لغسل يديه، مهما تكرر الأمر عشرات المرات في اليوم، تعليمه أن يأكل طعامه بطريقة مهذبة، لن يتعلم في البداية ولكن التكرار سيعلمه. عندما يرمي الطفل ورقة على الأرض لا تطلبي منه أن يضعها في سلة المهملات ثم تنصرفي دون أن تتابعي هل وضعها أم لا.. ولا تصرخي في وجهه؛ وإنما قومي واحملي معه الورقة وضعيها في السلة، ستكررين الأمر عشرات المرات حتى يتعلم.

إن تربية الطفل مهمة طويلة المدى، وغالبًا لا نرى نتائجها بسرعة، فنتعب ونمل.

يجب تعليم الطفل ألفاظًا مثل «من فضلك» و«شكرًا»، لأنه إذا لم يعتدها فمن الصعب أن يتعلمها وهو كبير ـ وهو يحتاج أن يسمعها طول الوقت من الكبار وهم يتعاملون معه ـ عندما تطلبين منه شيئًا. إننا لا نكلف أنفسنا معاملة الطفل باحترام، لأننا نتصور أنه لا يفهم، ولكن معاملته باحترام ستنعكس على تعامله مع الآخرين في المستقبل.

ذات يوم سمعت من قال لي إن حياة الأبوين تنتهي مع بداية حياة الطفل، ورغم أن هذا ليس صحيحًا، إلا أن هناك جوانب كثيرة يؤثر فيها وجود الطفل في حياة الأبوين، فأنتما مضطران إلى مراقبة تصرفاتكما، لم يعد مقبولًا أن تكذبا، ولو على سبيل المزاح، بينما تطالبان الطفل ألا يكذب، ولا بد أن تنتبها إلى كلامكما عن بعضكما وعن الآخرين، وأن تلاحظا تعاملكما باحترام مع الآخرين، خاصة الأهل والأصدقاء والخدم.. لابد من مراعاة الحياء داخل المنزل فلا يتصرف الأبوان براحتهما اعتقادًا أن الطفل لا يفهم، أو أن عليه أن يعرف فهذه سنة الحياة. الطفل ليس في حاجة لتعلم الجنس وهو في السادسة من عمره، إنه فقط يحتاج أن يتعلم الحب بين الأبويين، أن يشعر بالأمان فلا ندخله في مشاكلنا، ولا يشهد الصراخ والمشاحنات في البيت، ثم نعتبر هذا طبيعيًّا ولابد أن يعرفه الطفل.

ربما من المفيد أن يعرف الطفل أن الأبوين قد يختلفان أحيانًا، بل وتتعارض آراؤهما، ولكن هذا لا يفسد للود قضية، فكلاهما يحترم الآخر ويحب الطفل ويتمنى له الخير.

من الطبيعي أن يرى الطفل أن أبويه يخطئان من حين لآخر، ولا ضرر من الاعتراف بالخطأ، مع مراعاة ألا يتجرأ الطفل على أهله أو يوبخهم، أو يرى نفسه قيمًا عليهم.

لا شيء يحتاجه الطفل أكثر من المشاركة ـ أن يشارك أهله كلما أمكن ـ في الصلاة، في تناول الطعام... إن ضغط الحياة كثيرًا ما يجعلنا نحاول التخلص من أطفالنا لننعم ببعض الهدوء، نتمنى لو جلسوا مع المربية وقتًا أطول فيكفينا ما علينا من أعباء، ونحن ندفع لها لتخفف عنا العبء. حتى ترك الأطفال مع الأجداد، لتتمكن الأم من الذهاب للعمل، يؤثر في الطفل، ولابد أن تعوضه حين عودتها ولا تتحجج بأنها تعبة تحتاج للنوم. ساعة من الكلام مع الطفل.. وساعة من اللعب معه.. تناول الطعام معه.. تدليله.. يعوض كثيرًا غياب الأهل.

مشاركة الطفل في أعمال المنزل تبدأ من جمع ألعابه ولكن ليس عن طريق إصدار أوامر: اجمع ألعابك.. رتب غرفتك.. اطو ملابسك.. نظف المكان الذي أكلت فيه... إلخ.

لا أحد يتعلم بالكلام، إننا نحتاج إلى التمرين لنعرف كيف نقوم بالعمل، فبدلًا من قول: «اجمع لعبك» نساعده كل يوم في جمعها، ونبحث عن طريقة تجعل من جمع اللعب مهمة مسلية كأن نتسابق فيمن سيجمع لعبًا أكثر، ولا نجمع اللعب متذمرين أننا نقوم بهذا العمل كل يوم، وأننا مللنا إهماله وقلة نظامه.

عندما نقول للطفل «نظف بعد أن أكلت»، علينا أن نخبره ما المقصود

بالتحديد.. كأن يحمل كوبه وصحنه إلى المطبخ مثلًا، وأن يجمع ما سقط منه من بقايا الطعام.

المشكلة أننا نرى أننا لا نملك الوقت الكافي لكي نترك الطفل يقوم بالعمل ببطء، كما أنه لا يؤديه على النحو الذي نريده. فنسارع بالقيام بالعمل، ثم نشتكي في قابل الأيام أن أولادنا لا يساعدوننا في المنزل.

لا أحد يقول إن تربية الأطفال سهلة، ولا أن حياة الأهل سهلة، لكن إذا قررنا أن ننجب أطفالًا، فلابد أن نعرف أن وراءنا عملًا شاقًّا لا ينتهي. إن الأطفال غرس علينا أن نرعاه، حتى لو كان ينمو بإرادة الله، ومهما أثرت فيه الصفات الوراثية، إلا أنه في النهاية سيكون غرسًا طيبًا قدر ما اتقينا الله فيه وراعيناه، وقمنا بما علينا من عمل غير متذمرين ولا شاعرين أننا ضحية لأنه مطلوب منا كل هذا. إن هذا ما طلب من آبائنا قبلنا وسيطلب من أبنائنا بعدنا، هي دورة الحياة فلا داعي لتصور أن ما نقوم به لم يقم به غيرنا، وأن الأعباء التي علينا لم يتحملها أحد. إن العصبية والصراخ وإلقاء التعليمات والمحاضرات، وفرض العقوبات لن يربي أبناءنا.. وإنما سينتج طفلًا ضعيفًا مهزوز الشخصية، أو عنيدًا لا يكف عن الإضرار بنفسه وبغيره، إن ما نعطيه لأبنائنا هو ما سنجنيه ذات يوم. وكلما بذلنا الجهد لتعليمهم القدرة على مواجهة الحياة والتعامل مع الناس والقيام بما عليهم، أمكننا أن نفطمهم ولا يكون علينا أن نحمل همهم صغارًا وكبارًا، إننا نتعب معهم صغارًا لنفرح بهم كبارًا.

* * *

٢٢ ـ حب الأبناء

ليس هناك من لا يحب أبناءه، وأعتقد أن الحب لا يتفاوت بين الأهل وإنما الخوف والقلق والانشغال والضعف تجاه ما يحتاجونه وما يرغبون فيه هو الذي يتفاوت بينهم.

كل إنسان يحب أبناءه، ويراهم أروع الأبناء وأجملهم.. وأحيانًا يضغط عليهم ليكونوا الأروع والأجمل. وهذا الحب فتنة كما يقول القرآن الكريم.. إنه اختبار صعب على الأهل.

نحب أطفالنا فندللهم، ونتغاضى عما يفعلون باعتبارهم مازالوا أطفالًا لم يعرفوا بعد الصواب من الخطأ.

ويكبر الأبناء ويصيرون في سن يعرفون فيها الصواب من الخطأ، لكننا نشعر بالأسى عليهم عندما يخطئون؛ فهم لم يقصدوا ضررًا فيما فعلوه، وكل ما طلبوه بعض المرح والمتعة، وكل الأبناء في هذه السن يرتكبون مثل هذه الأخطاء.

ويكبر الأبناء ويفرح الأهل برؤيتهم رجالًا ونساء، لكنهم قد خرجوا عن سيطرتهم، ولم يعد بإمكانهم أن يوجهوهم أو يفرضوا عليهم رأيًا.

يرتكب الأبناء الحماقات، فيتغافل الأهل، آملين أنهم سيكفون عنها ذات يوم.. وأنهم بالتأكيد سيعودون لجادة الصواب بعد حين.

ليس منا من لم يمر بلحظات ضعف أمام أولاده، فيلتمس لهم الأعذار، أو يتغاضى عما فعلوه آملًا أن يهديهم الله، ولا يقعوا في مزيد من المشاكل.

من الصعب أن يرى الإنسان عيبًا فيمن يحب، فما بالك بأولاده، ومن الصعب أن نتقبل انتقاد الآخرين لهم مهما كانوا على حق.

أصبحنا حريصين على أن ندلل أبناءنا بالملابس والألعاب والمأكل والنزهة، نكاد لا نرفض لهم طلبًا، وعذرنا أن الجميع يفعلون هذا ولا نرغب أن يشعر طفلنا أنه محروم من مباهج الدنيا، أو أنه أقل من غيره. ولكن كالعادة، الطفل لا يشبع، فيواصل الطلب ونواصل نحن الرضوخ، ولا يسمع الطفل كلمة «لا» أو «ليس الآن»... وإذا حدث أن قلناها ينهار الطفل صارخًا باكيًا أننا لا نحبه، ولو كنا نحبه لاستجبنا لرغباته.

الطبيعي في هذا الوقت أن يكون الأب أو الأم حازمًا فلا يسمح للطفل أن يقول مثل هذا الهراء، أو على الأقل لا يستجيب لرغباته. ولكن كيف؟! والخوف من أن يصاب الطفل بأحد الأمراض النفسية يسيطر علينا، أو أن يصاب بعقدة نفسية نتيجة الحرمان، ونتيجة تمتع زملائه بأشياء ليست عنده؛ فنبقى ساعات نهادن الطفل ونعرض عليه البدائل، ونشرح له ضرر ما يطلب، وغالبًا إما يرضى ببديل أو يظل على إصراره. وهنا إما أن يرضخ الأهل خوفًا من أن يتصور الابن أنهم لا يحبونه، أو يعانوا تأنيب ضمير مؤلم لأنهم تسببوا في تعاسة ابنهم.

لم يعد من المعتاد أن يرد الأهل على الأبناء عندما يطلبون شيئًا بأن هذا ليس في قدرتنا، أو أن علينا أن ننتظر حتى يتوفر المال. لم يعد يعني الطفل هل مع أهله مال أم لا، وفيما سينفق هذا المال. كل الذي يعرفه أن عليهم أن يستجيبوا لرغباته، ولا يهمه كيف.

وهنا الهزيمة الأقوى للأهل أمام أبنائهم، إنهم يشعرون بالتقصير لعدم وفائهم باحتياجات أبنائهم ورغباتهم رغم كل ما يبذلونه. وبدلًا من أن يتعاملوا مع الأمر بالعقل والمنطق، نجدهم يعتذرون لأبنائهم، بل أحيانًا تهاجم الأم الأب لأنه فاشل.. ولو كان ناجحًا في عمله لحقق لأبنائه ما يرغبون فيه.

إن الأهل اليوم منهزمون تمامًا أمام أبنائهم، لا يملكون أن يرفضوا لهم طلبًا، ولو حدث ورفضوا طلبًا يظلون أيامًا يعتذرون عن تقصيرهم.

أمر آخر يظهر فيه ضعف الأهل الذي يعللونه بالحب، وهو أنه من الصعب على الإنسان أن يكون عادلًا حين يتعلق الأمر بأبنائه. إذا كان الأطفال يلعبون ثم حدث بينهم خلاف، فكيف لا يلتمس الأهل العذر لأبنائهم المخطئين؟ وكيف يحكمون بالعدل إذا كان سيترتب عليه أن يفقد ابنهم ميزة أو تؤخذ منه لعبة؟ ويبررون ذلك بمنتهى الجرأة: «كيف أمنح الأطفال الآخرين حقوق ابني نفسها؟ وفي منزلي؟ الطبيعي أن أخص ابني بالمكان الأفضل للجلوس أو النوم، أو بنوع الطعام الذي يحبه!!

ولدينا عذر دائم أن ربنا لا يكلفنا فوق طاقتنا، وأنه من الطبيعي أن ينحاز الإنسان لأولاده لأنهم أغلى ما في الدنيا لديه، وهو يعيش حياته من أجلهم فليس من الطبيعي أن يتساوى معهم أبناء الآخرين.

ويكبر أبناؤنا، ويعملون، ويتعرضون في عملهم لاحتكاكات وتنافس، ونكاد نموت قلقًا عليهم، لو أمكننا لذهبنا للعمل بدلًا منهم حتى لا يتعبوا، وعندما يشتكون من رئيسهم نصب لعناتنا عليه، ولا يخطر ببالنا، ولا نقبل أن يكون أبناؤنا مقصرين، ألا يكفي أنهم يستيقظون في الصباح ويذهبون للعمل، ماذا يطلبون منهم أكثر من هذا؟! ولا نتوقف عن الشكوى أن أبناءنا يتعبون في عملهم، وأنه زمن صعب، ليس فيه رحمة. كما لو كان المفروض أن يبقوا في منازلهم مرتاحين وينفق عليهم عملهم.

ويتزوج الابن، وبعد أن نبدي عدم رضانا عن أي فتاة سيتزوجها لأنها لا تستحقه، ولا تملك الجمال الكافي لتسعده، ولا المهارة الكافية كما لو كان هو فريد زمانه الذي لم تأت الأيام بمثله. ثم يكون الاختبار الأكبر فلقد أصبح عليه التزامات تجاه زوجته وأبنائه.. عبء آخر بالإضافة إلى العمل، ويكاد الأهل يموتون قلقًا على ابنهم الذي لا يجد وقتًا للراحة، ويحاولون أن يرفعوا عنه كل ما يمكنهم من أعباء، ويعتبرون زوجته مجرمة لأنها تطالب أن يقوم زوجها بالتزاماته، ألا يكفيها أنه تزوجها؟! إذن، سنقوم نحن بكل أعبائه فلا وقت لديه، كما أنه مرهق ومتعب في عمله ونخشى أن يمرض من الإرهاق، كما أنه يحتاج للترفيه ليخفف عنه عبء العمل.

أما ابنتنا فحدث ولا حرج، فهذه الفتاة التي دللتها عمري كله تقوم الآن بخدمة رجل لا يقدر ما تقوم به، ويتحكم فيها ويفرض أوامره وطريقته في الحياة، بل إننا كثيرًا ما نرفض أن تقدم لأبنائها ما قدمناه نحن

لها، لأن هذا كثير وهي لا يمكنها القيام بكل هذه الأعباء، فنقوم عنها بأعباء المنزل والأولاد.

وهكذا نقضي حياتنا في تحقيق رغبات أبنائنا، ونقضي شيخوختنا نتحسر عما يعانونه من مشقة في الحياة، سواء مادية أو معنوية، رغم أننا رفعناها عنهم دائمًا.

فكرة أن الحب مرتبط بالضعف فكرة خاطئة، فالحب شعور إيجابي، رغبة في أن نسعد من نحبه، لكن مع الحرص أن يكون شخصًا ناجحًا مسؤولًا محبوبًا من الآخرين، والأهم من ذلك كله أننا نريد لهذا الابن أن يرضي ربه وأن يدخل الجنة في النهاية.

لا يمكنك أن تحقق هذا إلا إذا كنت تحب حبًّا حقيقيًّا، وليس حبًّا أنانيًّا، حبًّا تعرف أنك به تدفع ابنك للانطلاق في الدنيا قويًّا مسؤولًا، غير معتمد عليك، حبًّا يجعلك تنبهه عندما يرتكب حماقات، وتراجعه عندما يخطئ، حبًّا يجعلك لا تظلم الآخرين من أجله بل تعطي كل ذي حق حقه، وربما تضغط عليه ليكون قويًّا.

يجب أن يتعلم الأبناء أن الحب لا يقدر بما نجلبه من أشياء مادية، بل أحيانًا نجلب المزيد من الماديات لنعوض تقصيرنا وعدم تأثيرنا في حياة من نحب. الحب هو أن ننشئ أبناءنا نشأة طيبة تساعدهم على النجاح في الدنيا والآخرة، وأن نكون إلى جوارهم إذا احتاجونا يومًا من الأيام. لكننا لا نفرض أنفسنا على حياتهم، ولا نتخذ القرارات المصيرية بدلًا منهم.

* * *

٢٣ ـ أخاف عليك

الخوف محرك أساسي لتصرفاتنا، وهو يبدو واضحًا في المثل الشعبي: «من خاف سلم». ونحن عادة نخاف القدر، ونخاف المسؤولين، ونخاف حكم الناس علينا، ونخاف الحسد...

من الغريب حقًّا أن نجد وقتًا، مع كل هذه المخاوف، نعيش فيه براحتنا، وأظن أنه لا يوجد وقت لا نقلق فيه.. فعندما يغلبنا الضحك نجبر أنفسنا على التوقف عن الضحك والاستغاثة بالله: «اللهم اجعله خيرًا».

ولكن الخوف الأشد والأقسى هو ما يتعلق بأبنائنا منذ يوم مولدهم، كم مرة تقوم الأم من فراشها لتتأكد أن مولودها مازال على قيد الحياة يتنفس، أو أنه لم يقع من فراشه، أو نام بطريقة خاطئة قد تتسبب في اختناقه.. ورغم أننا نؤمن أن أحدًا لن يموت قبل انتهاء عمره، إلا أننا ننسى هذا تمامًا عندما يتعلق الأمر بأولادنا.

ويكبر الطفل ليصبح صبيًّا، ولا يقل خوفنا، فنتابعه وهو يلعب خوفًا من إصابته بمكروه، نترك أرقام هواتفنا لدى المدرسة خوفًا من أن يصاب

طفلنا في حادث ولا يصلون إلينا، نمنع أطفالنا من كثير من الألعاب والنزهات قلقًا عليهم.

حتى الأطفال في سن التمييز نمنعهم من دخول المطبخ خوفًا من أن يحرقوا أنفسهم، أو يمسكوا بسكين فيجرحون أنفسهم.

نقضي أوقاتنا نقص قصصًا عن أطفال خطفوا، أو صدمتهم سيارات، أو اعْتُدِيَ عليهم.. ومن يستمع إلى تلك القصص لابد أن يتأكد أننا نحيا في غابة لا أمان فيها.

ويجن الأهل عندما يبلغ الأولاد سن المراهقة، يخافون من أصدقاء السوء، ومن أن يدمن أبناؤهم التدخين أو المخدرات، أو أن يشاهدوا أفلامًا فاحشة، أو يدخلوا إلى مواقع محرمة على الحاسب الآلي، ويخافون ألا يحصلوا على مجموع يؤهلهم لدخول الجامعة.

إن الخوف يسمم حياتنا ويجعلنا غير قادرين على رؤية أي جانب إيجابي، حتى عندما ينجح أولادنا، أو يجيدون القيام بعمل ما، يتملكنا الرعب من أن الناس ستحسدهم، وهل في ذلك شك؟ أليس الحسد مذكورًا في القرآن؟ ولو لم نخف من حسد الناس نخاف من فرحتنا نحن: «وما يحسد المال إلا أصحابه». فنمنع أنفسنا من الفرح، كأنما علينا دائمًا أن ندفع ثمنًا غاليًا مقابل أي لحظات سعادة نعيشها، فمن خوفنا من دفع الثمن نتوقف عن الشعور بالسعادة، ونبحث في كل أمر طيب يحدث لنا عن جانب سلبي يقلل من فرحتنا به.

نخاف على رزقنا فنتملق رئيسنا في العمل كي لا يغضب علينا، وقد

نؤذي زملاءنا خوفًا من أن يحصلوا على ترقية نحن أولى بها، نقضي ليلنا ونهارنا نفكر كيف ندخر المال لأبنائنا خوفًا مما ستأتي به الأيام، نحرم أنفسنا من أن نحيا في راحة اليوم خوفًا من أن نجوع غدًا؛ فالنعمة لا تدوم. ولا أعرف لم لا تدوم وهي من عند الله وقد وعدنا الله بالرزق؟!

نخاف المرض ونخاف الموت، فنمرض قبل أن نصاب فعلًا بالمرض. فمن كثرة ما فكرنا في الأعراض أصبنا بها.

نلاحق أبناءنا بالتعليمات حماية لهم، ومهما كبروا فهم أطفال بالنسبة لنا، ولا يعرفون مصلحتهم.

نخاف الناس في كل تصرفاتنا، أحيانًا يخيل إلي أننا نخاف الناس أكثر مما نخاف الله سبحانه وتعالى فنقترض بالربا لنقيم فرحًا لابننا حتى لا يقول الناس إننا غير قادرين.

الخوف عائق مؤلم، يشل الحياة، ويمنعنا أن نعيشها بشكل طيب، يمنعنا أن نتمتع بنعم الله علينا. لا راد لقضاء الله، ولا نعرف متى سنمرض أو نموت فلا داعي أن نعيش في خوف انتظارًا لهذا اليوم، فليس بيدنا دفع له.

لقد تربينا وربينا أبناءنا على الخوف، إننا نخيف الطفل وهو صغير لنحميه، أو ليطيعنا، ونخيف التلميذ في المدرسة لينجح، ونخيف الموظف ليؤدي واجبه.

لكننا لا نعرف تأثير هذا على الإنسان، لا نعرف كيف تتفاقم داخله

المخاوف، وكيف يؤثر الخوف على اتخاذه لقرارات مهمة في حياته، بل إننا نجعله يخاف أن يكون مختلفًا حتى لو كان على حق، أو لم يكن للأمر علاقة بالصواب والخطأ مثل أن يفضل طعامًا أو ملبسًا معينًا.. إن الخوف يخلق شخصية مهزوزة غير قادرة على الإنجاز خوفًا من الوقوع في الخطأ.

إن الخوف عائق يجعل الإنسان يبقى في مكانه خائفًا من الإقدام على أي عمل، والحياة تتطلب الحركة لنعيشها. إذا تذكرنا أمرين أساسيين وهما: أنه لا راد لقضاء الله، وأن رزقنا سيأتينا مهما حدث؛ حينئذ سنلتفت للقيام بعملنا في الحياة دون خوف أو قلق، سنسعد بأبنائنا وبكل لحظة فرح تسنح لنا، سنعرف أن هناك أوقاتًا سنضحك فيها وأوقاتًا سنبكي فيها، أوقاتًا سنسعد فيها وأوقاتًا سنتألم منها؛ لكننا لن نعيش منتظرين قدوم الحزن والألم خائفين منه، سنقوم بما علينا من عمل، وسنأخذ الاحتياطات المطلوبة، وليس أكثر منها.

ليست هناك طريقة للتغلب على الخوف إلا بالتوكل على الله سبحانه وتعالى، بالأخذ بالأسباب وترك الأمر لله. ليس مطلوبًا منك أن تكون عبدًا وربًّا في الوقت نفسه. ليس علينا أن نتولى أمورًا هي لله سبحانه وتعالى، علينا فقط أن نقوم بالعمل، لأن جزاءه ونتيجته على الله سبحانه وتعالى.. والله لا يظلم أحدًا ولا يغمضه حقه.

الخوف لن يغير من حياتنا ومصيرنا، لكنه يمنعنا من أن نحيا ونقوم بما علينا، إنه يحول البيوت إلى بؤر للتوتر والعصبية، ويدفع أولادنا للهروب منا، ليعيشوا حياتهم كما يريدون.

* * *

٢٤ ـ البُعد جفا

نتصرف في حياتنا تصرفات نرى ألا ضرر وراءها، بل إن المصلحة تستدعيها، ولا نرى نتائجها في ذاك الوقت.. بل لا نتخيلها أصلًا.

يسافر الأب ليعمل في الخارج، في مدينة بعيدة داخل البلاد، فلا يعود لأسرته إلا كل شهر على أحسن تقدير، أو خارج البلاد فيحمد الله إذا استطاع العودة سنويًّا لرؤية زوجته وأولاده. والشباب معذور في ذلك، فالبطالة منتشرة وليس من السهل أن يجد المرء عملًا، والرواتب متدنية لا تسمح له أن يكفل حياة كريمة لأسرته، والابتعاد عن أسرته ليس سهلًا ولا مريحًا، لكنها الضرورة وعليه أن يضحي من أجلهم!!

وقد يكون في ذلك كثير من الصحة، فالعمل في الخليج، أو في شركات البترول في الصحراء، أو في المناطق السياحية البعيدة يوفر دخلًا أفضل.

وكالعادة يبدأ الموضوع على أنه وضع مؤقت، حتى نُكَوِّن حياتنا، لكن الالتزامات تزيد ولا تقل، مصاريف الولادة، مصاريف الحضانة، الكسوة، المنزل يحتاج إصلاحات، هناك أجهزة نحتاجها.. وفي النهاية، لقد اعتدنا مستوى من الصرف من الصعب أن ننزل دونه.

وهكذا أصبحت نسبة كبيرة من بيوتنا تقوم على وجود الأم والأولاد، ويظهر الأب في الإجازات فقط، ونسبة غير قليلة يغادر فيها الأبوان للعمل بعيدًا ويبقى الأبناء تحت رعاية الجدة.

ويعيش الأبوان مطمئنَّين أنهما يضحيان حتى يسعدا أبناءهما، والأبناء لا ينقصهم شيء، وهناك من يهتم بهم ويرعاهم.

لن أتحدث هنا عن التأثير السيئ لوجود المال الكثير في يد الأبناء، ولا خطورة عدم مراقبة الأبناء، فلقد تحدث فيها الكثيرون وحذروا من عواقب سفر الأهل، أنا هنا أتحدث عن نقطة واحدة، وهي أن البعد جفاء.

هذا الأب الذي يتصور أنه يضحي من أجل أبنائه، هو في الحقيقة يحصل على امتياز واضح، فهو ليس مسؤولًا عن أعباء البيت اليومية ولا عن أعباء تربية الأولاد، بل يستطيع دائمًا أن يلوم زوجته على أنها قصرت في أمور البيت أو في تربية الأولاد وهو مطمئن أنه قام بما عليه.

أما الزوجة التي أصبحت مسؤولة كأم وأب؛ فهي تذهب لعملها، أو تبقى في البيت، تدير أموره وترعى أبناءها، من إعداد الطعام والملبس والاستذكار، وقضاء طلبات البيت وإدارة شؤونه، بالإضافة إلى إنهاء أي معاملات خارجية؛ فتشعر أيضًا أنها ضحية، بل تشعر أنها تقوم بالجانب الأكبر من المسؤولية بينما هو مرتاح بعيدًا ليست عليه أي مسؤولية.

لكنها أيضًا تكتسب ميزة حتى ولو كان فيها بعض الحرمان، فليس هناك رجل موجود لتخدمه، وتلبي طلباته، ويتحكم في حياتها؛ متى تخرج

ومتى تعود، ويحدد الوقت الذي تمضيه مع أسرتها أو أصدقائها، بل لم يعد هناك من يناقشها في مجال إنفاق المال.

وقليلًا قليلًا ينزوي وجود الزوج في حياتها، ولا تذكره إلا عندما تكون متعبة من الأعباء فتحمله مسؤولية أنها تحمل العبء وحدها. ودون أن تشعر، تتحول إجازته عبئًا عليها، تتمنى لو تنقضي لتعود الأمور إلى ما كانت عليه. بل إنها غالبًا تنسى أنها كانت تحب زوجها أو تسعد معه، فأصبحت علاقتهما واجبًا يزداد ثقلًا مع الأيام.

والرجل الذي يعود إلى منزله في الإجازة مطمئنًا أنه قام بالشق الذي عليه من المسؤولية، متوقعًا الاهتمام والتدليل؛ لتعويضه عن أيام الحرمان يصدمه هذا البرود، ولا يفهمه، فيثور ويغضب، ويشتكي ويتألم، ويستسلم في النهاية، ويبدأ هو أيضًا في النظر إلى الإجازة على أنها عبء، وكثيرًا ما يشعر أنه ضيف غير مرغوب فيه في بيته، فيرى ألا معنى في قضاء الوقت مع أسرته، فيخرج لرؤية أهله أو أصدقائه، بعيدًا عن النكد المقيم في البيت؛ فيزيد شعور المرأة أنه لا يقدرها، ولا يكلف نفسه أن يحمل عنها بعض العبء، أو أن يدللها فترة وجوده معها.

ومرة بعد أخرى يتناقص الحب، حتى يتلاشى، ويفقد الإنسان الرغبة، بل القدرة، على أن يشارك زوجه حياته، وتموت العلاقة الزوجية حتى لو بقيت قائمة، لقد دمر البعد هذا الرباط بمرور الأيام، وزادت القلوب جفاء، وأصبح كل منهما لا يفكر إلا في نفسه.

علاقة الأب بأبنائه قصة أخرى، لقد تكلم الكثيرون عن خطورة

تحول الأب إلى مجرد مصدر للمال. ولكن المشكلة من ناحية الأب، فهو إما أن يعود ليدلل أطفاله أو يشتري لهم ما يرغبون فيه، وينتهي الأمر عند هذا الحد دون القيام بأي دور في تربيتهم وتوجيههم، لأنه لا يعرف شيئًا عن حياتهم، لذلك يترك الأم تدبر أمورهم من دونه. فإذا حدث وطلب خدمة من أحد أبنائه، أو نصحه نصيحة؛ يتعجب الابن ويضيق، فهو لم يعتد منه إلا التدليل، وينظر إلى أبيه نظرته إلى غريب يتدخل في شؤونهم.

وإما أن يقرر أن يعوض كل ما فاته من تربية وتوجيه؛ فيمضي وقته يصرخ في أبنائه ويوجههم وينتقد سوء تربيتهم، ويمنُّ عليهم بما أنفقه عليهم من مال وعمر وجهد. ويتحول البيت خلال إجازته إلى ساحة انتقاد وصراخ؛ فيزداد نفور الأبناء منه، ويعتبرون الإجازة فترة عصيبة ينتظرون انتهاءها، بل يتمنون ألا تأتي.

ويزيد من سوء الصلة بين الأب وأبنائه شكوى الأم المستمرة منه، والحديث عن أنانيته وتخليه عن مسؤولياته. فيترسب في نفس الابن أن أمه هي سنده الوحيد، وأن الأب ليس له دور في حياته إلا أن يأتي بالمال. وينقسم المنزل لاشعوريًّا إلى قسمين؛ الأب في ناحية والأم والأبناء في ناحية أخرى، وتكون لهم حياتهم التي ليس للأب وجود فيها، راجين بمرور الوقت أن تقتصر علاقته بهم على المكالمات الهاتفية فقط.

أما إذا سافر الأبوان وبقيت الجدة؛ فهذا هو الخلل الاجتماعي والنفسي بعينه؛ فالجدة غير مؤهلة لتربية أبناء في هذه السن، فقد ضعفت قدراتها، وحتى إذا كان هناك من يقوم بأعمال المنزل بدلًا منها، فإن حالتها

العصبية لا تساعدها على رعاية الأبناء، فهي إما أن تدللهم وتترك لهم الحبل على الغارب، وإما أن تقضي وقتها في صراخ تلعن ذلك اليوم الذي سافر فيه الأبوان تاركين لها ذلك الحمل الكبير.

يشعر الأبناء بتخلي والديهم عنهم، مهما كان السبب، وبأنهم غير مرغوب فيهم، فيضعف الرابط الذي يربطهم بوالديهم، ويصبح الوالدان مع مرور الوقت مجرد ظل في حياة أبنائهم.

البعد قد يكون معنويًّا، فقد يعيش الأبوان في البيت ولكن بجسديهما فقط، ولا يشعر بهما الطفل؛ فهما مشغولان بعملهما واجتماعياتهما ولا مكان للطفل في هذا كله، بل تقوم على شؤونه مربية تقدم له الطعام وتلبسه وتقضي معه جل وقته. ولا أتكلم هنا عن المآسي التي تنتج عن وجود مربيات من بلاد وثقافات مختلفة. ولكني أتحدث عن شعور الطفل بتخلي والديه عنه، فيدافع عن نفسه بأنه ليس في حاجة لهما، ويضعف الرابط بينه وبينهما، وعندما يكبر الأبوان ويتلفتان بحثًا عن أبنائهما الذين يتصوران أنهما قدما لهم كل ما يمكنهما من إمكانات مادية، لم يتمتع بها أمثالهم.. يتلفتان فلا يجدان هؤلاء الأبناء، وتنطلق الأحاديث عن عقوق الأبناء الذين لا يعرفون إلا رغباتهم، ولا يقومون بما عليهم لآبائهم.. وينسى الآباء أنهم لم يبنوا روابط قوية مع أبنائهم، وأنهم لم يكونوا إلى جوارهم في طفولتهم ومراهقتهم، ماديًّا ومعنويًّا؛ فمن الطبيعي ألا يجدوهم عندما يحتاجون إليهم.

والشيء نفسه في العلاقة بين الزوجين، فهي علاقة تراكمية، لا تتكون

من بضعة أيام نقضيها كل شهر أو كل عدة أشهر، فإذا ما كبرنا وبحثنا عن تلك الزوجة لم نجدها، أو وجدنا الجفاء والضجر من ذلك الرجل الذي حرمها في شبابه، وها هو يعود الآن ليحملها أعباء شيخوخته.

* * *

٢٥ ـ هل تصدق ما فعله؟!

نكرر هذه الكلمة طول الوقت، ولا نكل ولا نمل من الشكوى من تصرفات من حولنا. ومهما تكرر الأمر، ومهما كان هذا هو السلوك المنتظر ممن حولنا، أو كان سمة لشخصية الإنسان فإننا لا نتوقف عن التعجب.

تعرف الزوجة أن زوجها إذا غضب سيثور وينطق بكلمات جارحة أو غير مناسبة، ومع ذلك تصر على أن تواصل التجربة؛ فتثير غضبه وعندما يتصرف على النحو المعتاد تصرخ: «أتصدقون هذا؟! لقد قال كذا وكذا!!».

إنه في كل مرة يقول هذا الكلام.. فماذا كنت تتوقعين؟!

تكون الزوجة معتادة على التأخر في التحضير والاستعداد للخروج؛ فيظل الزوج يُفاجأ في كل مرة ويشكو قائلًا: «أتصدق؟ لقد تأخرنا عن موعدنا مرة أخرى!!».

يعتاد الزوج التأخر في دفع الفواتير، أو جلب احتياجات المنزل فنجد الزوجة تصرخ: «أتصدقين؟! لقد طلبت منه القيام بكذا منذ أسبوع.. وهاهو يتأخر!!».

فإذا قلت لها: «لقد مضى على زواجكما عشر سنوات، وهو يفعل ذلك دائمًا.. فما الجديد؟ كيف خطر ببالك أنه سيتغير فجأة؟!».

فترد: لم أعد أحتمل، لقد بلغ بي الأمر مداه، لابد أن يتوقف عن هذه التصرفات.

وتمر أيام قليلة ويعود السلوك المعتاد وتعود المفاجأة. وهكذا في تعاملاتنا مع الناس عمومًا، ولكنه أكثر ما يكون بين الزوج والزوجة ربما للصلة الحميمة وكثرة التعاملات.

أظن الأمر في أعماقنا شبيه بقصة الضفدع الذي قبلته الجميلة فتحول فجأة إلى أمير وسيم، فنحن ننتظر دائمًا أن يتحول من حولنا إلى ما نريد ما دمنا نحسن التصرف ونقوم بما علينا من واجبات.

كما أننا نرفض تمامًا فكرة أن هذا هو الوضع السائد، وأن أغلب الناس يتصرفون على هذا النحو، فنحن نرى أننا نستحق أفضل من ذلك، ونعتنق فكرة أن ما يحدث للآخرين لا يجوز أن يحدث لنا.

ليست هناك ضفادع تتحول لأمراء وسيمين، مهما أغدقنا عليها من حب وحنان، فالضفدع سيظل ضفدعًا مهما حاولنا، قد يصبح ضفدعًا ظريفًا نظيفًا ولكن أبدًا لن يكون شيئًا آخر، أولئك الذين يتصورون أنهم سوف يغيرون من طباع شريك حياتهم، وسيحولونه إلى الإنسان الذي يحلمون به.. يضيعون وقتهم ويزدادون تعاسة؛ فالبخيل لن يصبح كريمًا، والعصبي لن يتحول إلى هادئ، والقَلِقُ لن يسترخي... وهلم جرا. على الإنسان عندما يتزوج أن يحاول التأقلم مع صفات شريك حياته، أن

يحاول أن يجد طريقة يتعايش بها معه رغم هذه الصفات، فلا يضيع وقته وجهده في محاولة تغييره، إن محاولات التغيير تحول البيوت إلى ساحات للمعارك، ولا ينتج عنها إلا مزيد من الشقاء.

كما أنني لست أفضل من غيري، فكيف أتوقع من زوجي الذي يسيء معاملة الآخرين أن يحسن معاملتي؟! إذا كان يظلم الآخرين ويأخذ حقوقهم فكيف يكون كريم الأخلاق معي، قد يصبح رقيقًا وقت الخطوبة فأنخدع بذلك، ولكنه لن يدوم، وسيعود كل إلى طبيعته.

لذلك، على الإنسان ألا يقبل الارتباط بزوج به صفة لا يستطيع تحملها أو التعايش معها. فالمرأة الكريمة قد لا تحتمل زوجًا بخيلًا، وهذه صفة لن تتغير. ولا يجوز أن نرتبط بإنسان آملين أنه بعد الزواج سيصبح إنسانًا آخر بالحب والتفاهم؛ لأن هذا لن يحدث. بل إنه في الغالب سيكون أسوأ مما كان، وستظهر صفاته وتتفاقم.

يفاجأ الرجال باستمرار من تصرفات النساء، والعكس صحيح. وبالرغم من كل الأبحاث والدراسات التي أثبتت أن الرجال والنساء مختلفون، وبالرغم من اقتناع الناس بذلك، إلا أنه على أرض الواقع يرفض كلا الجنسين الاعتراف بهذا الاختلاف، ومن الصعب على كل منهما أن يفهم ويستوعب كيف يفكر الطرف الآخر. لذلك فإن تقبل فكرة الاختلاف في طريقة التفكير والسلوك، وعدم أخذ الأمور بظواهرها، يقلل كثيرًا من الخلافات والمشاحنات، ويتيح لنا الوصول لطريقة نتعامل بها مع الطرف الآخر دون محاولة تغييره ليصبح نسخة منا في سلوكه وتفكيره، أو نسخة من أبي أو أمي.

هناك عناصر كثيرة تؤثر في تكوين الإنسان، منها كونه رجلًا أو امرأة، ومنها عوامل البيئة والوسط الذي عاش فيه، وهناك أيضا التربية التي تلقاها والرعاية التي حصل عليها. هذا إلى جانب صفاته الشخصية.

هذا الإنسان عندما يتزوج، يكون عمره عادة بين العشرين والثلاثين.. أي إن خصاله قد تأصلت فيه، وأصبحت فكرة تحويله إلى إنسان آخر فكرة غير عملية ولا معقولة. فليس أمام كل طرف منهما إلا أن يبحث عن نقاط تشابه أو تكامل؛ فيتعامل مع زوجه كما هو.. دون أن يفاجأ لأنه لم يتغير، وأن يجد أرضًا مشتركة يعيشان عليها، وهي عادة تكون مهمة المرأة التي هي الأقدر عادة على التأقلم وعلى احتضان الطرف الآخر.. فهي أم بطبيعتها، واستعدادها للأمومة يساعدها على غفران الأخطاء وسوء السلوك.. فتتعامل مع زوجها كما هو، ولا تفاجأ كل يوم أن ضفدعها لم يتحول إلى أمير وسيم.

* * *

٢٦ ـ لم يعد شيء كما كان!

هل مجرد الكبر في السن، أو بلوغ سن النضج، يعتبر مؤشرًا على أنه قد آن الأوان لأن نبكي على الماضي، أو ننوح على الحاضر السيئ الذي لا خير فيه؟!

عندما يتخرج الشاب من الجامعة، ويلتحق بالعمل، نسمعه يتحسر على أيام الجامعة، وما فيها من متعة. وعندما يتزوج يبكي على أيام العزوبية... وهلم جرا.

يبدو الأمر أشد وضوحًا عندما نكبر في السن؛ فتدور الأحاديث كالآتي: أطفال اليوم غير أطفال الأمس.. كنا في الماضي أكثر برًّا بآبائنا عن أبناء اليوم.. طعام الأمس كان أشهى وأطيب مذاقًا من أطعمة اليوم.. فهم يستخدمون الأسمدة الكيماوية.. والفلاح أصبح مهملًا لا يهتم بزراعته.. الطرق سيئة ومزدحمة.. أخلاق الناس تغيرت، لم يعودوا ودودين وطيبين.. الخدم أصبحوا سيئين وطماعين ولا يريدون العمل.. الجو تغير وأصبح شديد الحرارة.. الهواء ملوث.. الماء تغير طعمه.. لم يبق شيء على حاله، وإنما صار كل شيء إلى الأسوأ.

لا تجلس في مجلس إلا ويبدأ الندب على الماضي. ودائمًا ما يكون الماضي أحلى.

ذلك لأن الإنسان له ذاكرة اختيارية، وعندما يمر الحدث، أو يمر الزمن، يبهت الألم ويختفي، وتبقى الذكرى الطيبة. نتذكر الضحكات وننسى الدموع، تنقضي المشاكل أو تحل فلا نحمل همها ولا يبقى لنا من ذكراها إلا ما هو جميل وهين.. إن القلق الذي كنا نعيشه في الماضي على أبنائنا، والإرهاق من كثرة أعبائنا لا يبقى حيًّا، وإنما يزول بمرور السنين؛ فهو شعور وقتي ينقضي فلا نعيشه ثانية، فننسى ما كان في سابق الأيام، ولا نذكر إلا أن حياتنا كانت سهلة ميسرة.. ثم تأتي الآلام والتوتر مرة أخرى، فنعتبر ما نذكره من الماضي هو الماضي كله، وأنه أفضل من الحاضر الذي نراه ونعيشه الآن.

كما أننا كنا في الماضي شبابًا تملؤنا الحيوية، نتمتع بصحة جيدة تمكننا من التحرك والسفر والقيام بكل ما نريده، كنا نأكل ما نشأ ونذهب أينما نشاء. لم تضعفنا الأيام وتمتص المسؤوليات قدرتنا على الفرح.. كما أنه من عاداتنا أن نربط بين كبر السن وبين الزهد في الحياة.. فلا يتصور كبار السن ولا من حولهم أن من حقهم أن يتمتعوا بأي شيء في الحياة؛ فقد مضى زمن التمتع بالحياة، فلا يحق لكبير السن أن ينفق ماله إلا على صحته، وليس من حقه أن يرغب في مأكل أو ملبس، ولا في الخروج في رحلة إلا لو كانت إلى الأراضي المقدسة، ومن هنا تخيم على حياة كبار السن سحابة من القتامة تجعلهم يحنون للماضي.

كما أنه من الأسهل أن يكون تغير الحياة هو سبب تعاستنا بدلًا من أن نواجه أنفسنا بأننا غير راضين عن عيشتنا، الإنسان بطبعه لا يرضى، إنه دائمًا في حاجة لشيء آخر حتى يكون سعيدًا، لا يمكنه أن يصدق أن السعادة تأتي من داخله، يتصور دائمًا أنه كان أسعد فيما مضى ولا يعرف أنه كان الإنسان نفسه غير الراضي، كل ما في الأمر أنه قد نسي ذلك.

الحياة تتطور وتتغير ما في ذلك من شك، لكن لماذا لا نرى إلا النواحي السيئة في الحياة؟ التطور والتقدم كما يجلب السيئ يجلب الحسن، قد تكون الشوارع ازدادت ازدحامًا لكننا أصبحنا نملك سيارة، قد يكون أبناؤنا أكثر انشغالًا عنا، لكننا أصبحنا نستطيع الاتصال بهم في أي وقت نشاء. قد يكون الطعام قد تغير، لكن الحصول عليه أصبح أيسر.

مهما كان الأمر فالحياة فيها الطيب والسيئ جنبًا إلى جنب، وليس الماضي كله خير والحاضر كله شر إنما هما خليط من كل هذا، وعلينا أن نعيش الوقت بوقته، ونتمتع بكل وقت وأوان، نرى الجوانب الطيبة ونحاول أن نعدل السيئ.. أما البكاء على الماضي فلن يجلب لنا إلا مزيدًا من الحزن والألم، وما أن ينقضي اليوم حتى نبكي عليه غدًا.

* * *

٢٧ ـ لا بد أن تدفع الثمن

يطالب أبناؤنا باستقلاليتهم، ويرغبون أن نتركهم يتصرفون كما يريدون، ويقررون أنهم الأدرى بمصلحتهم؛ ويبدأ الجدال في بيوتنا، مشاكل تتكرر كلها بنمط واحد: لماذا يتدخل الآباء في حياة أبنائهم وقد كبروا وأصبحوا مسؤولين عن أنفسهم؟

المشكلة لها شقان، الأول: أننا غالبًا لا نربي أبناءنا ليستقلوا بحياتهم عنا، لا نسمح لهم وهم أطفال بالقيام بالأعمال مهما كانت بسيطة، خوفًا عليهم من أن يتأذوا، لا نسمح لهم باتخاذ قرارات حتى لو كانت تخص الثوب الذي يرتدونه لأننا الأدرى بمصلحتهم. ويكبر الأبناء ويبدأ الخلاف فهم يريدون بعض الحرية والاستقلالية، لكن خوفنا يتزايد.. وكيف لا نخاف وأخطار المراهقة أكثر بكثير من أخطار الطفولة؟! فنتابعهم، ونحرص على وجودنا في حياتهم. ويكبر الأبناء وهنا نرى أنهم لا يعرفون الكثير، فقد اعتدنا القيام عنهم بكل شيء؛ فالأمر لله، علينا أن نواصل فهذه ضريبة الأبوة. ونظل نشكو من أننا كبرنا على القيام بكل هذه الالتزامات، لكننا لا نستطيع التوقف، فأبناؤنا لا يستغنون عنا، ولا يعرفون كيف يتدبرون أمورهم.

الأمر الثاني: أن الأبناء، بدءًا من سن المراهقة، يميلون إلى التمتع بأوقاتهم، سواء مع أصدقائهم أو في التسلية ومشاهدة التلفاز، وبالتالي فلا مانع لديهم أن يقوم أهلهم عنهم بكثير من الأعباء، مثل إعداد الطعام وغسل الملابس وتنظيف حجرتهم، ولا مانع لديهم من التخلي عن بعض الخصوصية في مقابل الراحة والمتعة.

وعندما يكبر الأبناء ويتخرجون ويبدءون رحلة العمل، يكونون قد سبق لهم أن تخلوا عن بعض خصوصياتهم لأهلهم، والوضع الآن أصبح أكثر تطلبًا؛ فهم مرهقون من عملهم، ليس لديهم الوقت للقيام بأعباء حياتهم، وإذا توفر الوقت فالأولى أن يمرحوا فيه حتى يتخلصوا من ضغوط العمل.

وهنا رغم نفور الأبناء من تدخل الأهل في خصوصياتهم؛ ماذا أكل؟ ماذا لبس؟ متى نام؟ هل تأخر في الاستيقاظ؟... إلا أنهم في داخلهم يستمرئون إلقاء تبعة بعض المهام على كاهل أبويهم. والمشكلة أنهم أحيانًا يعتبرون أنهم يقدمون خدمة لأبويهم بشغل أوقاتهم بدلًا من أن يشعروا بالفراغ ولا يجدوا ما يفعلونه. وأحيانًا تبلغ الأنانية بالأبناء أن يعتبروا أن ما يفعله الأهل هو واجب عليهم، وأن كل الآباء يفعلون ذلك.

ومن ناحية أخرى ورغم الشكوى المتكررة من الأهل، بأنهم كبروا على تحمل هذه الأعباء، إلا أن جزءًا في داخلهم يسعد لأن أولادهم لا يستطيعون الاستغناء عنهم.

المشكلة الآن أن هذا الوضع يستمر بعد زواج الأبناء؛ فيصبح الأهل

جزءًا من هذه الأسرة الوليدة، سواء معنويًّا بالتدخل بالرأي على أساس أنهم الأكثر خبرة.. وغالبًا ما يغضبون إذا لم يؤخذ رأيهم في الحسبان، أو ماديًّا عن طريق مشاركة أبنائهم في كل أمور حياتهم، فتتولى الأم تنظيف منزل ابنتها والاعتناء بأطفالها، ويقوم الأب بقضاء مهام ابنه كإصلاح السيارة أو الانتهاء من المعاملات في المصالح الحكومية، أو إصلاح أي أجهزة تتعطل في المنزل. وتتداخل الحياتان، ويصرخ الأهل من أن هذا كثير عليهم، وعبء لا يمكنهم القيام به. ويصرخ الشباب أنهم ليسوا أحرارًا في اتخاذ أي قرارات تتعلق بحياتهم، ويشكو كلاهما ظلم الزمن والأطراف الأخرى، وتدور القصص والأحاديث لتملأ جلساتنا بكلام يتكرر، كأن هذا هو نمط الحياة الوحيد المتاح، ولا يفكر أحد متى ومن أين بدأت المشكلة؟

إن الأهل الذين يرغبون، ويصرون على أن يقوموا بدور أساسي في حياة أبنائهم كان عليهم أن يعلموا أن هذا يعني مزيدًا من العبء، الأم التي رفضت أن تعلم أبناءها كيف يقومون بهذه الأعمال، سواء خوفًا عليهم أو من منطلق الأمومة كما تفهمها هي.. كان لابد أن تعرف أنها يومًا ما ستتعب وسيكون من الصعب عليها أن تطلب من أبنائها شيئًا، أو تقبل أن يقدموا لها ما تحتاجه، وهي قد اعتادت العطاء، وأن لكل سن قدراته، فمن الصعب على الأهل أن يعيشوا من جديد مشاكل الشباب وأن يستمعوا إليها حتى لو كانوا مروا بها ذات يوم؛ لأن قدرات الإنسان تضعف، ومن الأفضل أن يحل الأبناء المشاكل بعيدًا عن أهلهم، ولا يحملوهم ذلك العبء النفسي. لكن هذا هو الثمن الذي يدفعه الآباء

لأنهم لم يفطموا أبناءهم، ولم يعلموهم من الصغر أن يتولوا أمورهم بأنفسهم تدريجيًّا، حتى إذا كبروا كان بإمكانهم أن يتصرفوا في حياتهم كما يرون، ويصبح دور الأهل استشاريًّا.

أما الأبناء الذين يصرخون طالبين استقلاليتهم فعليهم أن يعرفوا أن الاستقلالية عبء ومسؤولية، وأن الإنسان الذي يرغب في أن يحتفظ باستقلاليته وخصوصيته عليه أن يقوم بأداء أعماله بنفسه؛ إذا طلبت من أمي أن تنظف حجرتي أو منزلي لا يمكن أن ألومها لأنها غيرت أماكن الأشياء، إذا تركت أولادي مع أمي فلا أعتب عليها أنها تعلمهم ما لا أرغب، أو تربيهم على ما لا أريد، إذا أخذت المال من والدي فلا أغضب إذا سألني فيم أنفقته؟... هكذا لكل شيء مقابل، وثمن ندفعه، وعلينا أن نحسن حساباتنا قبل أن تتفاقم الأمور ولا نعرف كيف نجد لها حلًّا.

* * *

٢٨ ـ كثير أو قليل.. لا فرق

عندما لا يتوقف أحد الزوجين عن الشكوى والتذمر؛ يشعر الآخر أنه مهما فعل لن يرضيه، فلا داعي لبذل مزيد من الجهد.

يعتمد نجاح الحياة الزوجية أساسًا على الرضا، والرضا شعور علينا أن نزرعه في الطفل من طفولته؛ وذلك بأن نقلل من شكوانا من ظلم الحياة، وظلم الناس، وقلة الحظ، وقسوة الظروف.. فالابن الذي ينشأ في بيت تعمه الشكوى والتذمر، يتكون لديه شعور قوي بأنه مظلوم، وإذا تعاطفنا مع شعوره الدائم بأنه مظلوم؛ سواء لأن أهله غير قادرين على منحه كل ما يريد، أو لأن المدرس ظلمه، أو لأن زملاءه يضطهدونه... فسوف يكبر وهو يشعر أنه مظلوم، وسيكون من الصعب إرضاؤه، لأنه سيعيش متذمرًا طول الوقت، لا يرى إلا سلبيات الحياة.

يكبر هذا الإنسان ويتزوج، ولأنه اعتاد التذمر ورؤية السلبيات، واعتاد أن يحمل الآخرين مسؤولية شقائه؛ فلن يرى في زوجه إلا العيوب، وسيركز حياته محاولًا تغيير تلك العيوب التي لا يحتملها، والتي تجعل منه

إنسانًا تعيسًا، رغم أنها في النهاية قد تكون مجرد فروقات واختلاف في وجهات النظر.

الإنسان الذي تعود على رؤية السلبيات لا ينتبه إطلاقًا لنعم الله عليه، بل يبقى متذمرًا من كل ما يتصور أنه يزعجه، يرى أن الحياة صعبة، وأن رفيق حياته لا يبذل أي جهد لإسعاده، أو لا يمتنع عن سلوك معين، أو لا يهتم بما يشغله، أو لأن فيه عيبًا معينًا لا يحاول التخلص منه.

وإذا ما طاوعه رفيق حياته وتخلص من بعض ما يزعجه، أو بدل قليلًا من سلوكه آملًا أن تسير الأمور على ما يرام؛ فسرعان ما يعاود التذمر من عيب أو سلوك آخر، ويكثر من لوم رفيق حياته، وتعود الخلافات والشكوى من جديد، وتخيم التعاسة على البيت.

وهنا يصل زوجه إلى نتيجة محددة؛ إنه مهما حاول، ومهما قدم، فلن يسعد شريك حياته، بل سيظل متذمرًا تعيسًا، شاكيًا ظلم رفيق حياته وقسوته؛ والنتيجة أن يتوقف ذلك الزوج عن أي محاولة للتفاهم ومراعاة مشاعر الطرف الآخر، ويزداد بعدًا عن شريك حياته وانزواءً في حياته الخاصة.

الحياة ليست الجنة، ولا يمكن لأي إنسان أن يحصل على كل ما يريد؛ فعليه أن يتعلم أن يرضى بما عنده، وأن يتعايش مع ما لا يرضيه، وأن يجد جانبًا مشرقًا في كل شيء، وهذا ليس صعبًا إذا حرص عليه الإنسان، بل إن الله سبحانه وتعالى يعين العبد إذا رضي.

علينا أن نتذكر أن كل شيء في حياتنا مؤقت، حتى حياتنا نفسها مؤقتة، فلا داعي أن نعطي الأمور أهمية أكثر من أهميتها الحقيقية فلا شيء سيدوم للأبد، فعلينا أن نسعد بما أعطانا الله من نعم وهي كثيرة. وحتى الزوج الذي ننزعج مما فيه من عيوب أو سلوكيات نستطيع أن نجد فيه مميزات كثيرة، بل إن الصحبة ذاتها تستحق أن نحتمل من أجلها بعض ما لا يرضينا. حتى الظروف الصعبة قد نجد فيها خيرًا كثيرًا.

إن كثرة التذمر واللوم تدفع الطرف الآخر للابتعاد، وتشعره أنه مهما حاول فلن يرضي شريك حياته فالأفضل أن يريح نفسه؛ لأنه سواء قدم كثيرًا أو قليلًا، فالنتيجة واحدة؛ هي أن لا أحوالها ولا أحوال البيت ستتحسن نتيجة محاولاته؛ ومن ثم يفقد الرغبة في المحاولة، وينفصل معنويًّا عن شريك حياته.

فلو تقبلنا برضا ما يحاول تقديمه، حتى ولو لم يكن ما نريده بالفعل، فسرعان ما يعم الرضا حياتنا مما يسهل معيشتنا، وتعم السكينة حياتنا.

أما إذا لم نرض ونقبل، فلن يتغير شيء، لأننا لا نستطيع أن نحول إنسانًا إلى ما نريد، حتى أبناؤنا ستكون لهم دائمًا شخصيتهم الخاصة التي قد لا تعجبنا، وتصرفاتهم التي قد نتعجب منها، فإذا كان هذا حال أبنائنا الذين ربيناهم كما نريد فما بالك بزوج عاش وتكونت شخصيته لأكثر من عشرين عامًا في بيئة أخرى وحياة مختلفة، هذا الإنسان لا يمكن أن نغيره، ومادمنا قد رضينا الزواج منه، فعلينا أن نتعايش مع كل صفاته وسلوكياته، فهو بشر وليس ثوبًا نضبطه على قياسنا.

قد نسخر من كبار السن عندما يتكلمون عن البركة، ولكن الحقيقة أن البركة تعم البيت بالرضا. الإنسان لا يسعد إلا بالرضا، والحياة رغم قسوتها مليئة بالجوانب المضيئة وبالخير، لا يمكننا رؤيتها إلا إذا رضينا.

علينا أن نتذكر أنه من المستحيل أن نرتبط بإنسان تكون صفاته كلها موافقة لهوانا، أحيانًا أتخيل أن الإنسان لو تزوج نفسه سيتذمر من عدم رضائه عن بعض عيوبه. فلا يمكن أن نجد زوجًا يتصرف دائمًا كما نحب، ويحب الأشياء التي نحبها، ويكون لديه حكمنا نفسه على الآخرين.. إن كل إنسان يختلف عن الآخر. بل الإنسان يختلف من مرحلة لأخرى في حياته.. فعلينا أن نأخذ الإنسان ككل، إذا أزعجنا عيب أو سلوك بحثنا عن ميزة تقابله، أو ربما نتحايل على أحد العيوب لتسير الحياة؛ فالحياة لا تسير دائمًا كما نرغب. وإذا لم نتعود أن نقبل بما تأتي به الحياة فسنظل تعساء ولن تتغير الأمور. إننا في حاجة لبعض المرونة والحس الفكاهي لنأخذ الأمور بشكل جيد.

كما أن علينا أن نتذكر أن زوجنا يعاني هو الآخر من بعض صفاتنا وسلوكياتنا التي نعتبرها عادية ولا تستحق الضيق. فكما نطلب من زوجنا أن يرضى عنا وعن حياته معنا، لابد أن نبادر بالرضا، ولا ندفعه لليأس والابتعاد بل نقدر كل محاولة منه لإرضائنا مهما كانت بسيطة.

* * *

٢٩ ـ فقدان الهوية

شغلني دائمًا هذا الحزن الذي أراه على صديقاتي اللاتي بلغن سن المعاش، أو على الفتيات اللاتي اضطررن للبقاء في المنزل ورعاية الأطفال، لا أعتقد أنه الخوف من الفراغ فهناك دائمًا الكثير الذي يمكن أن يشغلهن. حتى نبهتني ابنة غالية في إحدى كتبها لأمر غاب عني؛ إنها ترى هويتها في الإنجاز الذي تقوم به، هويتها في الصفة الوظيفية التي كانت تؤديها. فهذه طبيبة وتلك محامية والأخرى مذيعة... فإذا ما اعتزلن العمل فقدن الهوية ولم يعدن يعرفن ما هن بالفعل، وما وضعهن في المجتمع أو مع الناس.. فأصبحن تائهات. لقد كان العمل هو أهم ما يصورهن، وتوارت كل الأدوار الأخرى بجانب الدور الوظيفي؛ فلما فقدنه فقدن أنفسهن.

أستطيع أن أرى هذا ليس فقط في الموظفة ولكن أيضًا في الزوجة التي تنحصر هويتها في كونها زوجة؛ فما أن يموت زوجها أو تنفصل عنه حتى تتوه في الحياة لا تجد لها هوية. ومثلها مثل الأم التي تنحصر هويتها في كونها أمًّا، ولا تعرف لنفسها هوية أخرى؛ فتواصل العطاء والتضحية لتحافظ على هويتها، وترفض أن تنشغل بما يتعارض مع واجبات الأمومة كما تراها، بل تعتبره إضرارًا بهويتها.

وهكذا ما أن يكبر الصغار، ويتزوج الشباب، حتى تجد نفسها فجأة بلا هوية في سن لا يمكنها فيها البحث عن هوية جديدة؛ فتحاول استعادة هويتها عن طريق مواصلة الاهتمام بأولادها، والتدخل في شؤونهم، مبررة ذلك بالقلق عليهم ومساعدتهم، فتحمل نفسها من الأعباء الجسمانية والمعنوية الكثير وهي تقوم بأعمال ما أصبحت بمقدورها لتحافظ فقط على هويتها كأم متفانية.

هكذا يشعر الإنسان عندما يحال على المعاش، أو يكبر أولاده، أن لا دور له، بل لا وجود، لأنه فقد هويته بفقدانه لدوره، فتصاب الأمهات بحالات الاكتئاب وينهار الوزراء السابقون وغيرهم من الموظفين... لأنهم فقدوا الهوية التي كانوا يواجهون بها العالم بفخر.

يحتاج الإنسان أن تكون له هوية نابعة من نفسه وليس من إنجاز يقوم به، أو من لقب حصل عليه، إن هوية الإنسان هي في وجوده ذاته، لقد كرم الله الإنسان ذاته عندما خلقه. الإنسان هو الذي يعطي الإنجاز هويته وليس العكس.

وهكذا مهما تقدم بي العمر أعرف أنني موجودة من أجل نفسي وليس من أجل دور أو شخص أو وظيفة تمنحني الهوية. كما أعرف أن هذه الذات من حقها أن أقدرها وأعمل على راحتها، فلا أخجل إن تمتعت بشيء من الرفاهية، إذا سافرت لأروح عن نفسي، فذاتي تستحق حتى لو لم ير العالم هذا، وليس لدي ما أخجل منه. قد ينقص العمر من قدراتي وجمالي ولكنه

يزيد من حكمتي، ليس علي أن أعتذر لأنه لم يعد في مقدوري أن أقوم بكثير من الأعمال. فهذا أوان الراحة أو أوان عمل آخر مجهوده يناسبني.

لم أفقد هويتي فأنا ما زلت الإنسانة نفسها التي كانت يومًا ما موظفة أو زوجة أو أمًّا، لم أفقد شيئًا من قيمتي كإنسانة، أشع بنفسي ولا أحتاج كوكبًا آخر يعكس ضوءه علي.

من أسباب احتفاظ الإنسان بهويته أن يكون قادرًا على الاكتفاء الذاتي، هذا لا يعني اعتزال العالم ولكن يعني أنه يمكنني أن أتمتع دون الحاجة لآخرين يسلونني ولا يمكنني الحياة دونهم، أن أتمتع بلحظات وحدتي حتى لو طالت، لذلك من المهم أن يكون للإنسان أكثر من هواية، قد لا يكون بارعًا فيها لكنها تسعده، قد يحب أحدنا الرسم ولكن لم يمارسه طول حياته لانشغاله، أو لشعوره أنه لا يجيده فلا مانع الآن من أن يشبع هوايته وقد توفر له الوقت.

الحقيقة أننا كثيرًا ما نتوقف عن أنشطة لأننا نرى أنها لا تتناسب مع سننا، أو أنها تافهة نخجل من القيام بها. لكن لا شيء يخجل إلا الحرام، إذا لم يكن ما نرغب فيه حرامًا فلا سبب يمنعنا عن القيام به. إن لحظات السعادة هذه التي نعيشها ولو قليلًا، تجعلنا نحتفظ بهويتنا وبقدرتنا على مواجهة الحياة حتى لو انتهى دورنا الرئيس فيها، فنجد دائمًا ما نفعله وما يسعدنا حتى ولو كان مجرد التأمل في الحياة وكتابة كلمات مثل كلماتي هذه، قد يقرأها أحد أو لا يقرأها، إنما كتبتها لأشبع رغبة لدي، وللقيام بدور أرغب في القيام به مهما تقدم بي العمر.

* * *

٣٠ ـ فلنغير أنفسنا أولا

تكلمنا كثيرًا عن أن الإنسان لابد أن يرضى ويتعايش مع الصفات التي تزعجه في والديه أو في شريك حياته، لأننا في النهاية لا نستطيع أن نغير طباع الناس من حولنا، ومع ذلك نبذل جهدًا جبارًا طول حياتنا لتغيير أزواجنا وأبنائنا وإخوتنا وأصدقائنا والعاملين معنا، ونتعامل مع أنفسنا كأننا زرعًا نبت بصفات محددة، لا نستطيع أن نغيره.

هذا لا يعني أن نمتنع عن التفاهم والنصح والتعليم.. لكنه يعني ألا نمضي وقتنا في مطالبة الآخرين بالتغيير، ولا يعني الغضب والشجار مع الذي يرفض أن يتغير.

يعجز الإنسان عن تغيير الآخرين بالضغط عليهم، ولكن يمكنه أن يغير نفسه، إننا نعيش حياتنا كلها نتعلم، نتعلم من الحياة، ومن تجارب الآخرين، ومن المدارس والكتب.. ولابد أن هذا كله يؤثر فينا، لذلك، لابد أن نستفيد من كل ما مر بنا في تحسين أنفسنا أولا قبل الانشغال بتحسين الآخرين، نستفيد منه في تشذيب أطرافنا الحادة، في تفهم وجهة نظر الآخرين والاستفادة منها في حياتنا وفي تعاملنا معهم ومع غيرهم ممن نحتك بهم في حياتنا.

الإنسان ليس كالزرع لا يتغير.. وإلا ما آمن الكفار، وما نجح العاجز في القيام بالكثير من الأعمال المستحيلة.

نقول دائمًا إن الحياة مدرسة كبيرة، لكننا نتصرف كأنها مدرسة للآخرين فقط، ونمضي وقتنا نطالب الآخرين بالاستفادة منها، وتربية أنفسهم، واكتساب مهارات جديدة.. لكننا نرفض الاستفادة منها، ندافع عن موقفنا بالقول إن من الصعب تغيير عاداتنا لأن من شب على شيء شاب عليه، ونرفض أن نتعلم أي جديد، أو نقبل أي طريقة غير التي اعتدناها.

منذ أول خطواتنا في هذا العالم نتعلم مهارات جديدة كل يوم، وما أن نكبر حتى نتصور أننا قد عرفنا واخترنا طريقنا، وأن طبيعتنا تشكلت. أعتقد أن الإصرار على البقاء على ما نحن عليه يدخل فيه شيء من التعصب والكبر.

إننا نكره التعصب ونعتبره من الكبائر، لكننا نحصر التعصب في التفرقة بين أهل الأديان، أو مختلفي لون البشرة... بينما التعصب قد يكون بالإصرار على طريقة في الحياة لأننا اعتدناها حتى لو تبين أنها غير صالحة أو أن هناك طرقًا أخرى أصلح، وقد يكون التمسك برأي ثبت خطأه لمجرد أننا تربينا عليه، أو حتى التمسك بطريقة طهي لمجرد أن أهلنا يتبعونها.

الحياة مدرسة كبيرة فعلًا، فيها بشر من جميع الأنحاء نستطيع أن نكتسب خبراتهم، وأن نتعلم منهم ما يعرفونه، كل المطلوب أن نفتح عقولنا وقلوبنا لنتقبل كل ما ينفعنا، ونستفيد من كل من وما نلقاه.

إننا بعد أن نكبر، نتصور أننا وجدنا طريقنا ولن نحيد عنه، وأن طبيعتنا تشكلت، وأننا لو غيرنا من أنفسنا فهذا اعتراف منا بأنا كنا على خطأ، أو أن غيرنا أفضل منا، أو أننا إذا تغيرنا فسوف نفقد ذواتنا وكياننا.

التغيير ليس استسلامًا ولا ضعفًا ولا إهانة؛ إن مهمة الإنسان الأساسية لينجح في تعمير الأرض أن يهذب من نفسه، وليس معنى التهذيب أن يسلك سلوكًا راقيًا، ولا أن يتلفظ بالكلام الأنيق المهذب، ولكن أن يتعلم كيف يستفيد من كل ما تأتي به الحياة ليكون أصلح وأقوى في معترك الحياة.. ولا يترك فرصة إلا ويستفيد منها ليتغير إلى الأفضل، فيصبح أكثر رحمة ولطفًا وعلمًا وتهذيبًا.

لو ركز كل إنسان على تحسين نفسه بدلًا من تحسين الآخرين، لو حرصنا على انتقاد أنفسنا بدلًا من انتقاد الآخرين، لو عشنا حياتنا بقلب وعقل متفتح قادر على التعلم والاستفادة من خبرات الآخرين ـ لعرفنا أنه حتى لو كنا زرعًا كما يتصور بعضنا، يمكننا أن نكون زرعًا أفضل.

أذكر عندما قال أحدهم ذات يوم: لا داعي للتعب في تربية الأبناء، لأن بذرة التفاح ستنتج تفاحًا، وبذرة الجميز ستنتج جميزًا، ولن يمكننا تبديل أولادنا أو تغيير شخصياتهم.

هذا صحيح من جانب واحد، هو أن الجميز لن يتحول إلى تفاح.. لكن أمامنا الكثير لنعمله في تربية أولادنا، فالجميز المعتنى به ليس كالجميز المهمل.. والتفاح المعتنى به ليس كالتفاح المهمل.. والتربية في الصغر ومراجعة النفس في الكبر هي العناية التي نقدمها للجميزة أو لشجرة التفاح.

قد لا أتمكن من تغيير نفسي تمامًا.. لكني سأتمكن من تشذيب حدة صفاتي، قد لا أكون قادرًا على التخلص تمامًا من عيوبي.. لكن يمكنني أن أخفف منها، وأن أستخدمها فيما يفيد.

فلنكف عن تربية الآخرين ونلتفت لتربية أنفسنا أولًا، عندئذ لن يكون لدينا الوقت أو الاستعداد لتربية غيرنا، بل سنكون أكثر تقبلًا وعذرًا لهم.

* * *